
أبو بكر العيادي
قصص
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل
حقائب الترحال
ورقة . للنشر
2009

حقائب الترحال

إلى ريم... حبيبة وزوجة

أبو بكـر العيادي

حقـائبُ التّرحَال

قصّ

تبَدّتْ لنا وسَطَ الرُّصافةِ نَخلةٌ   تناءتْ بأرضِ الغربِ عن بلدِ النخْلِ

فقلتُ شبيهتي في التغرُّبِ والنّوى   وطولِ التنائي عن بَنِيَّ وعن أهلي

نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ   فمِثلُكِ في الإقصاءِ والمُنتَأى مِثْلي

عبد الرحمن الداخل

مشيناها خُطى كتُبت علينا   ومن كتُبت عليه خطىً مشاها

ومن كانت مَنيّتُهُ بأرضٍ   فليس يَموتُ في أرضٍ سواها

عن ألف ليلة وليلة

[حقيبة أولى]

الآن وقد أتت الأيام بأتربة غمّت ركام الصور والذكريات، وتناءت أوجه الماضي البعيد، صار يتطلع إلى أعوامه الأولى كما ينظر العائد إلى رسم دارس، طلل كان فيما مضى دارا أليفة، آثار أقدام يخلفها السابل على أرض ندية، مطبوعة إلى حين.

صار يقلّب ما طمرته الأعوام، كمن يبحث تحت الردم عن رمم من عهد قديم، لعل الحظ أو القدَر أو هذه الذاكرة اللعوب، التي تتنخّل من الأحداث ما لا ينفع في أغلب الأحيان، تهديه إلى ما يبلّ الغلةّ ويطفئ سؤالا لجوجا كان يراوده كلما أرخى الليل سِدْله، وناء عليه المنفى بوزر كالكابوس، ينسلّ منه الوجْس والتهمام والخوف من واقع رديء وغدٍ مجلل بضباب كثيف .

ودّ أن يعرف، وكم من ليلة ودّ أن يعرف، سرّ هذا التيه الذي كُتب عليه ولم يُكتب على الذين من قبله، من عشيرته وأهله وناسه، منذ أن هجر قريته الضامرة المهملة، وظل مرتحلا كالناجعة ما بين سواحل المياه الدافئة ومدن البرد والضباب، يطاول شيئا لا يعرف ما هو، كالساعي في طريق بلا صُوًى نحو أفق لا يلوح فيه غير سراب يُسلِم إلى سراب. ألوان من مدن تخدع الحس ولا تهب

غير الفراغ. أوهام تتناسل كالرؤى في ليلة صَرْد.

ويرهقه التساؤل فيرتد إلى الذاكرة، مثل سائق يتلمس طريقه بالتطلع إلى المرايا العاكسة، ويلوح من بين سهوب الذهن، كشمس تطل من خلف غبابة، ذلك اليوم الغامض المصطخب برسيس الشوق والهجر. شوق إلى أهله الذين نزحوا إلى العاصمة قبله، وتركوه ينهي عامه الدراسي، وهجر أحبة جاؤوا لتوديعه والعيون دامعة والصدور ملتهبة بالزفرات.

زاغت عيناه وهم يقبّلونه ويبلغون أهله السلام بأصوات يَمتطي بعضُها الآخرَ، إلى أمكنة رأى فيها النور، وتعلم في ثنياتها تسمية أشيائها ونباتها ودواجنها، يختزنها في ذاكرته الطرية، ذاكرة طفل لم يتخطّ عامه الثامن، كمن يسجل قبل الرحيل أشياءه الثمينة، ليسأل عنها حماة الديار عند العودة.

فرن الطين الذي يتوسط البراح، شجرة التين التي كان يستجير بفيئها وقت الهاجرة، وخلفها البئر والجابية عند مدخل الجنان، كوم الدّمَان قرب الزريبة حيث ديكه الأسود ذو الرقبة المحمرّة والصدر المنفوخ، ديكه الذي لم يتأخر يوما عن إيقاظه كأن له كتابا موقوتا، وتلك الحقول المترامية التي نصب فيها الفخاخ مرارا لصيد القبّر والضريس والحجل والسمانى وأبي الحنّاء... فضاء مشرَع من هشيم الزرع يلهبه القيظ ويخرقه ضوء يعشي الأبصار.

لم يكن ذلك أول ارتحال له، فقد فارق في عامه الرابع أهله، وعبر وادي ملا□ على ظهر بغلة هرمة، وقادته جدته إلى دوّارها، حيث حفظ أحزابا من كتاب الله، وعلّمه خاله كيف يغرس شتلة

مشمش، فَلَقَت نواةً كان ردمها خلف كوخ الطين المطل على جبّانة العشيرة. وكان طوال عامين في حل وترحال بين دوّار أبيه ودوّار أمه، تعلّم خلالهما الصبر في الحالين على من يفارق.

في ذلك اليوم، وناسه حوله يتكلمون باللغو، مازجه إحساس بأنه راحل بغير رجعة. كان يلمس ذلك في الأسى الذي يسكن عيونهم الدامعة، وفي بيته الذي صار مرتعا لأحفاد عمّه الأكبر. بيت لم يعد يبصر في مدخله طيف أمه وأخواته وأخيه منذ شهور، وهم من الفرح في غاية حين يقبل رفقة أبيه أو جدته أو خاله بعد غياب.

لم يفهم لماذا رحل أهله إلى المدينة، مدينة تونس، في حافلة قديمة بائسة منهكة المهاميد والمحرك أقلتهم إلى العاصمة. قدّر أنهم ربما خافوا من طائرات الفرنسيس التي ألقت على ساقية سيدي يوسف رجوم النار والحمم، وتركت خلفها شبح الموت يرفرف على اليتامى والأيامى، وظل على ذلك الظن حتى جاءت الأيام بالخبر اليقين.

في ذلك اليوم تعلّم معنى أن يفقد المرء شيئا عزيزا، وانتابه إحساس بأنه ممزق بين مهد طفولته وصباه، وبين مهبط مجهول نزلت به العائلة واستقرت، ولا يزال التمزّق قائما حتى اليوم، بين واقع معلوم يستبقيه، وواقع مجهول يستدنيه بخيوط خفية كأنه حقل ممغنط، فإذا ما حلّ به وألفه، اجتذبه عالم جديد مغلف بسديم لا يدرك ما وراءه.

ذلك اليومُ، من أيام عمره المتقلب بين دعة قليلة ومفازع لا تحصى، ظل علامة منشورة بين العين والقلب، وسمت ذاكرته كوشم لا يمّحي، وطبعت أيامه اللاحقة.

لم يسع يوما لامتلاك ما يمكن أن يشده عن ارتياد آفاق أخَر، كأنه أدرك منذ البدء أن الرحيل قدَره، وأن الراحل لا يحتاج لأكثر من حقيبة.

في ذلك اليوم، لم يكن يحمل غير قفة بها قطع حلوى حمصية وحلوى قصب وحلوى بالجلجلان لم يعرف من اشتراها، وبيض تهشم نصفه في الطريق ومحفظة مدرسية قديمة، بها بعض كتب وكراريس وشهادة ارتقائه إلى الصف الرابع .

ـــ مدن الغريب ـــ

1 - مدينة الرمل

شهباء غبراء يخرقها الضوء من كل جانب، ويترامى في أعطافها العجاج والرياح الرملية الحارقة، وأسرابٌ من خلقٍ فائرٍ على الدوام، يهرف بكلام لا يفقه معناه.

مدينة مشرعة للشمس والرمل والدسائس.

مدينة يتكلم أهلها جهرا بما لا يطوون عليه الجوانح، ويقضون أيامهم في وجوم يتوجسون من خوفٍ ما قد تطالعهم به الأماسي والأصباح.

مدينة ليلها صمتٌ مثل صمت المقابر، إذا ندّ صوتٌ اضطرب له السامع واختلج ومضى في سرعة تشبه الذعر.

2- مدينة الضباب

مدينة يشملها البرد والمطر والضباب، مغلفة بطبقة كالرماد الداكن يكاد يقبض منها السائر حفنة، كأنها كوكب قصيّ يغشاه سديم كثيف.

سَماؤها واطئةٌ هابطة، تظلل وجوها جاهمة عابسة، كما لو أن أصحابها يتجرعون الغصص، أو يعانون من ذِلّة تطعن القلب. في

الصباح يستَوفون نوما يستدرجونه ليلا بالخمر والجنس والأقراص، وفي آخر المساء يعودون في صمت وانكسار كأنهم فلول جيوش مهزومة.

مدينة يتكلم أهلها سرّا ويخفون في صدورهم نصف الكلام.

3 - **مدينة الثلج**

مدينة لا تعرف الظلال.

مدينة يغطي البياض سفوحها وأعاليها مثل كفن عظيم. لا لون غير البياض الساطع. لا لونَ عدا ما نضحت به الأغصان من اخضرار يبين كالوَشْي في ثوب العروس. بياض تطمئنّ لرؤيته العين وتقرّ النفس بسكينة خاشعة.

أصواتها تنطلق مع بخار الأنفاس، مثل وسوسة الأوراق إذا هزها نسيم، أو نسوةٍ يتهانفنَ بضحكاتٍ وَسْنَى.

مدينة يضحك أهلها صمتا، ويتكلمون صمتا، يشخصون بالبصر فلا يطرف ولا يتحرك، كأنهم يؤدون مراسم طقس مكتوم.

4 - **مدينة الريح**

مدينة لا تفتح صدرها للريح، والريح تأتي.

لاذعة عنيفة شرسة، هوجاءُ جافلة، زفزافة متناوحة. تعصف متى تعصف دون سابق إنذار، وويلٌ لِمن تاه به السعيُ أو غرّهُ السّرَى فأدركته على حين غفلة، إذا لم تجرفه كما تجرف الحصى، أصابته منها جذوع هاوية، تُردي بلا رحمة .

مدينة يسكنها الناس كما يركب الملاح البحر، برغم اللجة واللجب والأنواء، وهو يعرف أن الموتَ راصدٌ له .

في وجوه أهلها صبرٌ وجَلَد، وفي عيونهِم بريقٌ يبضّ بِما لا يُفهم، وفي أصواتهم شيءٌ أشبهُ بالغيظ المكظوم.

مدينةٌ أهلُها جزءٌ من القضاء والقدر.

5 - مدينة الليل

أضواء كسياط تُلهب ذاكرة الليل. ليل مُشبَع بالعشق والفن والأسمار، وأخلاط من بشر من القارات الخمس.

مدينة لا تعرف نوما ولا راحة، تشرع أوكارها للخمر والسهر والجنس، وتحرّم التحريم، فإذا هي أشبه بسدومٍ أو عمورة.

مدينة تبيع اللذة لمن يدفع، وويل لمن أغرته فتنتُها فهوى. عندئذ لا يدع له الليل اطمئنانا في صباح أو مساء.

6 - الغريب

صور من حياته مرت في ذاكرته سراعا كشريط تناهبته دقائق.

خيالات أيام كان يَحسب أنها تناثرت كبُراية العود، فإذا هي موشومة ثابتة لا تميل ولا تزول، تتأوّبه مثل شيء عزّ مناله.

عندما ترتاده، تعود به الذكرى إلى سنيّ الشباب حينما كان يعيش ليومه، لا يفكر في غد أو بعده كأنه يعيش أبدا، فيقضي اليوم والليل كاسفا، يكاد لا يذوق نوما ولا راحة.

ـــــ أقنـعة ـــــ

1 - كأس ثانية

رآها تجلس قريبا منه، في ركن معتّم بمقهى **لانسولان**[1] بشارع **كليشي** وتلتفت نحو البار في ابتسام. قصيرة، ناحلة، ذات سمرة عربية لا تخطئها العين. قدّر أنها جاوزت العشرين بقليل، وأنها رغم لباسها المهمل وشعرها المتروك بغير تسريح لا تخلو من حسن.

انشغل بقراءة **ليبيراسيون،** وإذا نادل شابّ سَمين، بوجه مفلطح ونظارة عريضة، يدنو منها ويطبع على ثغرها قبلة. داخله ضيق شديد حين بدأ يسمع وشوشة سرت بينهما تنبئ عن وصل قديم، وهو الذي يكره أن يرى عربية يغازلها روميّ. جرع كأسه دفعة واحدة وتهيأ للنهوض، وإذا هاتفها النقّال يرنّ بمقطوعة لِموزار، وإذا هي تردّ على مخاطبها بلغة لم يفهمها، ولكن تبيّن من مفرداتها أنها برتغالية.

عندئذ نادى النادل وطلب كأسا ثانية.

2 - في المترو

رآه يصعد عربة المترو مصحوبا بامرأة مشيقة أنيقة، ذات شعر أزعر منثور الخصل، وعينين زرقاوين واسعتين. أسود فاحم، متين

1 الوقح L'insolent

البنيان، ذو شعر مفلفل وقسمات رقيقة. لم يتطلع إليه غير شبان مستتدين إلى قائم عند الباب.

كانوا ثلاثة، يتكلمون بلهجة تونسية سوقية، مشحونة بالكفر والسماجة، يغتابون بها ذلك الرجل الأسود فيما بينهم ويقهقهون، والرجل في غنى عنهم، يمرّ الكلام البذيء فوق رأسه كالسحاب العابر. كان يتحدث مع رفيقته بالإنقليزية، في عالم خاص بهما لا تدركه الرشقات المقذعة.

عندما توقف المترو بِمحطة **بروشان**، شاهد الرجلَ الأسود يتجه، قبل النّزول، صوب الشبان، ويعاتبهم بلهجة تونسية اتّسعت لها العيون دهشة، وتجمد الكلام والضحك والسخرية.

3 - غدَاء

عندما التقى بها في **البيت الأبيض**، حانة صغيرة قبالة **محطة الشمال**، تتحول ما بين الزوال والظهر إلى مطعم، يجد فيه الموظفون والمسافرون بعض قوت، مثل سائر الحانات الباريسية، دعاها إلى الغداء فلبّت.

في مثل سنّه تقريبا. من **ستراسبور**، تتكلم الفرنسية كالألمان. شكلها أيضا يوحي للناظر بأنها من **الراين** أو **البافيير**. فرعاء، شديدة بياض البشرة مع حُمرة في الوجنتين، تصرّ جسدها المتين ذا الأرداف الثقيلة في معطف وبريّ داكن. هشة الوجه تبتسم لأيما سبب.

لم يكن ثمة من اللحم غير الدجاج المخنوق ولحم الخنزير. تناولت من الأطباق ما اشتهت، واكتفى هو بسلطة وقطعة مرطبات.

سألته وهما يقرعان الأنخاب :

- لماذا تشرب الخمر ولا تأكل لحم الخنزير ؟

أجابها :

- ينبغي أن تقبليني بتناقضاتي.

ولم تقبل.

وفي آخر المساء، كان كل واحد منهما يمضي إلى غايته.

4 - مفاجأة

في ذلك المساء الشتوي الحزين، عندما عاد إلى شقته الخاوية، منهرسا بألواء الغربة والوحدة، شرع في إعداد عشائه بنفسه. بعض ضلوع ضأن مشوية مع شيء من الخضار، وإذا برنين الجرس يتناهى إلى سمعه. تردد قبل أن يفتح الباب، لعله واهم، فما من أحد يطرق بابه غير ساعي البريد، وساعي البريد لا يأتي إلا في الصباح، ومرة في الشهر أو تزيد.

وما كاد يفتح الباب حتى بدت واقفة أمامه على العتبة، وبيدها زجاجة شمبانيا. أشرق وجهه والغرفة وهو يهتف :

- مش معقول **! كونشيتا ؟!**

وارتمى عليها يحضنها بقوة.

وفي قلب الليل كانت صديقته الإسبانية بين ذراعيه عارية.

ـــ في انتظار اللحظة الصفر ـ

1- رحيل

عندما عاد إلى شقته الرطبة في ذلك المساء الباريسي الحزين، يحمل طيّ إهابه خبر الفرح المؤجّل من سنين، والجو ضباب ضارب وسبائخ بيض تنفرش على الشوارع كأكفان متّصلة، كان الفراغ يرفرف في الأرجاء، وتملأ رائحته الكريهة المكان.

طاولة ومقعدان وسرير خال، وشمعة تحترق على مهل فوق صوان قديم، وصوت **جاك بريل** يرتقي حيطان الصمت : " هكذا...مع الوقت يمضي كل شيء ".

ذهبت ولمّا تزل ذكريات لهما في دروب المدينة.

2 - حلم

عندما أسلم جسده المضنى من تعب وهموم إلى فراشه البارد، لم يكن يجوب سهوب ذهنه غير طيف نأى مثل الفراشة في المدى، طيف التي ذهبت ولم تدع غير ذكرى تعتاده في كل حين، تتناوب على ذهنه المجهد تناوب الحمّى في حرارتها وبرودتها. ولمّا أخذته سِنة من النوم، والليل آفل ولا من أمارة تشفّ عن انبلاج الفجر، رأى، فيما يرى النائم، تلك التي ذهبت وما تركت سوى عطر بخدّ الباب معتلق، تقبل نحوه، وابتسامتها تضيء الطريق أمامها، لتصطفيه من

بين خلق كثير وتهَبُه وردة.

حينما أفاق، وألوان النهار الطالع تبدد غبش الغرفة المربدّ، كانت الوردة تُفرِد أوراقها على بياض الوسادة الخالية جنبه.

3 - أمنية

عندما ألَمّت به ذكراها، والوقت يُفتصّ سدى، وأضغاث اليقظة تنهب منه السكينة، والجوّ يزفر رائحة الوحدة الخانقة، وسماء باريس، في ذلك اليوم الخريفيّ العابس، رماد قاتم ينزرع في الصدر همّا كالرصاص، ويورث في النفس كآبة مطلقة، تمنّى لو يرحل كالطير إلى ربوعه الحالمة، حيث الدفء والأنس والضياء، فيقدُّ من أشعة الشمس ونسائم البحر وألوان الغروب ريشة، ليرسم في بياض القماشة وجه الحبيب... وعطره.

4- عدّ عكسي

عندما رنّ جرس الهاتف وأيقظه من خدر الصباحات اللذيذة، صباحات نهايات الأسبوع الخاملة، جاءه صوت صديقه، الهارب من بلاده كأنّ في ظهره النار، يهنّئه بعيد ميلاده الخمسين.

تَملّى في المرآة شعره المشتهب الذي يلتمّ على جبين أجرد، ونظراته الغائمة في عينين غائرتين، تحوق بِهما أورام خفيفة من أثر التكالب على الشهوات، وغضون دقيقة بدأت تزحف على وجه منخسف الخدين، وأيقن أنه بلغ الذروة، ذروة العمر، كما يبلغ المكتشف قمّة الجبل التي ليس بعدها إلاّ الاِنحدار، وأنّ التّمام لن يعقبه سوى النقصان.

منذ تلك اللحظة، أدرك أنّ كل يوم يهلّ سيدنيه من النهاية،

تماماً كذلك العدّ العكسي لأفول الألفية الثانية، الذي يلوح له الآن في صدارة برج **إيفل**، فكيف إذن يحتفي بأيام تنعى موته البطيء ؟ أليس مضحكا أن ينذر عيد مولده بالأجل المحتوم ؟

تساءل في سرّه مرارا، حتى أنف من التساؤل، فمضى يدفن في الحانات أياما متساقطة من عمر لا معنى له.

5 - **خيبة**

عندما التفت إلى سنيِّ عمره الخوالي، يفتّش في خبايا الذاكرة عمّا يمكن للناس أن يذكروه به بعد رحيله، لم يصادفه شيء، لا في القريب البادي، ولا في السحيق المخفي. عاود التنقيب، يسبر الماضي بحثا عن علةّ لوجوده، فلم ير إلاّها أثرا يحمله طيّ إهابه، كجرح لا يميت ولا يندمل.

من أجلها هي أحرق سفنه وتاه في جُنح المنافي حتى نشفت جذوره، فهل يصحّ، وقد أتى عليه زمن لئيم، أن تهجره وهي التي استجارت بفيئه أوانَ الجمر والقدَر الخائب ؟ وهل يصِحّ أيضا أن يسعى في إثرها، وهو الذي ما حنى يوماً هامته لغير الخالق.

من خلف زجاج البار الأنتيلي، رآها توليه ظهرها وسط الزحام، تصرّ جسدها الفارع في معطف من الجلد الأسود، وشعرها الأشهب المنفوش يَميل مع الأنسام حيث تميل.

وفي لحظة نسي كل شيء. جرى إليها، والدهشة في الأحداق متسعة، فأنكرها وأنكرته، وعاد يجرّ ذيول الخيبة والخذلان. عندئذ، أحس أنه مقبل على أيام من تعب ولهاث، حتى يلقاها، لعلها تلطّف سير الزمن... في انتظار الساعة الصِّفر.

ــــ ليلة الألفية ــــــ

1 - شارع الشنْزيليزي

رآها والمدى خلقٌ كالجراد الجائح، والأضواءُ خافقة، والفضاءُ يفيض بأصداء قرع الطبول وأنغام الموسيقى والتهاليل الصاخبة، والشماريخُ تخرق القبة الكحلية كمارج من نار وتتهاوى كوكْف المطر، وبلاطةُ الطريق والأرصفة علبُ بيرة وقواريرُ شمبانيا فارغة وقراطيس تدحرجها الأرجل.

من قوس النصر حتى ساحة **الكنكورد**، كان الشارع كالسيل الطامي، والناس يروحون ويجيئون في دبيب كدبيب النمل، يطالعون منصاتٍ مختلفة الألوان والأشكال، يقدم على خشباتها فنانون من أنحاء العالم عروضا ولوحاتٍ مدهشة.

رآها على مسافة قريبة، ومال نحوها يدفع الناس بمنكبه، فإذا فتية سكارى يولعون معركة، وإذا رجال أشداء من بوليس التدخل السريع يطوقون تلك البؤرة ويحولون بينه وبينها.

رآها ولم تره .

ناداها بصوت متهدج غطت عليه جلبة المتخاصمين، والضجيج، وأصداء الموسيقى.

ظل يتابعها بنظراتٍ يائسة حتى ابتلعها الزحام.

2 - قوس النصر

كانت ليلة شتوية رحيمة لم يشُبها غير لفح ريح باردة، ورغم ذلك كان يحس بالدفء، دفء الأجساد المتدافعة حوله ودفء الويسكي الذي يجري في عروقه.

كان محاطا بثلاث نساء، شقراء وبيضاء وسمراء، ورغم ذلك، مازجه شعور بأنه وحيد، جاء يشهد الحدث وحده، لا أهلٌ ولا نديمٌ ولا وطنٌ.

وفجأةً شقّتِ الزحام مليحة حسناء، بيضاء، هضّة الخطى، ذات شعر ذكوري فاحم، ووجه مدوّر في لون المنيوليا، تلمع فيه عينان غامقتان، وارتمت عليه تقبّله في غفلة منه، ثم انفتلت ضاحكة، لتلتحق برفاق ورفيقات كانوا يتابعون المشهد وهم من الضحك في غاية.

ظل يستطعم ريقها العذب وملمس شفتيها النديتين، وقد علت وجهه حمرة، والنساء من حوله يمطرنه بالاستهزاء. وفي لحظة قدّر أن تلك الفتاة أرادت أن تغيظ زوجته، وهي لا تعلم أن مرافقاته متزوجات، وليس له فيهن واحدة.

3 - **ساحة الكنكورد**

عندما بلغ نهاية الشارع، والأضواءُ المتلألئة تخلب الأبصار، والناس همشة مضطربة،÷ يتدافعون ويرقصون ويصخبون أو يقبلون رفيقاتهم ، وشبان لعبت بعقولِهم الخمرة فإذا هم أشبه بكلاب تتهارش، مدّ عنقه يتأمل **الكاروسيل**، عجلة عظيمة بالغة الارتفاع، موضوعة على دكة عالية تلمع فيها أضواء بألوان قوس قزح، تدور حول نفسها في شكل عمودي، وفي جوفها رجال ونساء، يؤدون

حركاتٍ بهلوانية وسط إيقاع موسيقي قوي، وهتاف وتهليل وتصفيق وأصداء عربدة.

وحانت منه التفاتة فرآها.

كانت تشخص ببصرها إلى العجلة هي أيضا. أشرق وجهه لحظة وهمّ أن يناديها وفي صدره فرح يموج، وفجأة انطفأت نشوته وهو يرى رجلا يطوق خصرها الناحل، وهي تفيض عليه بالابتسام .

كظم أمره عن رفيقاته ومضى في اللجة يسعى بغير دليل.

4 - برج إيفل

عندما وقف على مسافة من البرج الشامخ مثل امرأة خرافية في ثوب عروس، يشهد العد العكسي للثواني الأخيرة من ألفية لم يجنِ منها أجداده غير الفتات، كان كمن يرقب بعين ساخنة وقلب واجف فتيل قنبلة تقرضه شعلة متسارعة، لا يعلم أحد ما سوف تبقي، وما سوف تذرُ.

رانت على الخلق المتراصّ لحظة صمت رهيبة كأنها الخشوع، كُتمت خلالها الأنفاس وخفقت القلوب، وتعلقت الأبصار بساعة البرج الإلكترونية، وأرقامها في نزول ينهش الزمن ثانية وراء ثانية.

داخله شعور بأن اللحظة الصفر ستكون حدّا فاصلا بين شيئين غامضين لم يعرف بالضبط كيف يحددهما، وأنها ستنثر على الحاضرين ما يشبه غبرة سحرية، ينقلبون إثرها من حال إلى حال.

عندما انفجر الهتاف من حوله، واشتعلت أضواء البرج بلألاء

كأنه رقراق جدول صافٍ، ينحدر من رأس وادٍ صخري، وتتعكس عليه أشعة الشمس بومض خاطف، قلّب طرفه حوله، فإذا الناس، وهم يرفعون الأنخاب ويتبادلون القبل والعناق، كعهده بهم منذ لحظة.

[حقيبة ثانية]

لا يزال يذكر ذلك اليوم الصيفي القائظ وتلك الحرارة الدبقة التي نزلت فجأة على روما، كأنها جاءت تلاحقه، وكان يظن أنه تخلص منها بعبوره المتوسط، لينعم برحلة هادئة، بعيدا عن الجو الخانق الذي تركه في طرابلس.

تسكع في شوارع المدينة بغير هدى، يستكشف أمكنة سمع عنها، أو شاهدها في أفلام **روسلّيني** و**فلّيني** و**بازوليني**، أو قرأ عنها في روايات **مورافيا** و**إلسا مورانتي**، تطالعه في كل منعطف آثار تشهد عن عظمة هذه المدينة التي كانت تنطلق منها جحافل الجيش الروماني، لتبسط على المتوسط نفوذا أبت أن يشاركها فيه أحد. وسادت رغم قرطاج، ورغم حنبعل...

ودّ لو يغمر المدينة سكونٌ، لعل نسمة تأتيه بأصوات قادمة من ماضٍ سحيق، صليل سيوف المتصارعين، وهدير جمهور ينضح بشهوة الدم، وفرقعة سياط المتسابقين على عربات تجرها خيول مطهّمة... ولكن الجوّ راكد، والغقيق يملأ الأسماع، والصخب ينصلت كالحد الفاصل بين القديم المهجور والحديث البادي للعيان بألف لألاء يزول معها الحلم والتذكر.

توقف عند نافورة **تريفي،** وألقى في مائها بقطعة نقدية، وتمنى مثل عشاق روما أن يوهب طاقة على العشق، عشق كل شيء جميل، ما بقي في القلب نبض، وراح يسرّح في الشوارع خطوه بغير رفيق، ينتظر موعد السفر إلى مدينة **ليون** لزيارة أخته، حتى قادته قدماه إلى الفاتيكان، أصغر دولة على وجه الأرض، يدخلها المرء بلا تأشيرة، ولا رقابة شرطة حدودية، ولا جمارك.

اختلط بأفواج غفيرة من السياح من مختلف الأجناس في ساحة دائرية فسيحة، تتوسطها مسلة فرعونية، ثم اجتاز باب البرونز وقوس الأجراس يتأمل تماثيل ورسوما من عصر النهضة، وإذا بكاهن بدين، مكلل الرأس، مدوّر الوجه كأنه حبّة زنباع [2]، يصرّ جسده في ثوب خورني بنيّ، له طربوش منسدل على الظهر، ينحدر حتى قدمين مفرطحتين تنتعلان مداسا من جلد، ويتحزّم بحبل من قنُّبٍ، ينحني قربه أمام المسيح المصلوب، ويرسم بحركة من يده إشارة الصليب، ثم يشرع في تقديم شروح بالإيطالية دون أن يلتفت إليه، عن مريم البتول وبولس ويوحنا وبطرس... ويرافقه حتى كنيسة القديس بطرس وهو يفيض بالشروح، بين تضرّع وآخر، عن لوحات **ميكل أنجِلو** وآلام المسيح وأنصاره الأوائل. وفجأة سأله :

- آرَبو ؟
- نعم. عربيّ، من تونس.
- توريستو ؟
- نعم.
- ما رأيك لو نتغدّى معا ؟
- شكرا. ليس لي رغبة.

---

2 ليمون هندي Pamplemousse

- هل تغدّيت ؟

- أكلت بضع فواكه.

افتر فمه ذو الشفاه الرقيقة عن بسمة خاطفة وقال :

- شاب في مثل قوتك لا تكفيه الفواكه. تعال. تعال معي لتنال لقمة وتستريح قليلا، وبعد ذلك سنَزور متاحف **كيارامُونتي** و**بيو كليمنتينو** و**البيناكوتيكا** والمتحف المصري والقصور...

وتبعه. لم تكن لديه رغبة في الأكل ولكن جسده، رغم فتوّته ولم يبلغ عامه الثلاثين، اشتد حنينه إلى الراحة، وحدّث نفسه أن الله رزقه بدليل حتى يجمع إلى متعة النظر فائدة المعرفة. وإن كان يودّ لو كان الدليل غير ذلك الراهب، لأنه يأنف من رجال الدين، فهم لا ينفكّون يذكّرون المؤمنين والمشركين بنار جهنم، كأن الله استوقد فرنا عظيما لا بدّ له في كل آن من وقود حتى تظل النار مشتعلة، ويخيل إليه أحيانا أن الملائكة مثل **فرانقية** حمّام باب الجديد لا شغل لهم إلا حَمْش النّجْر ليحمى السعير ولا يخبو اللهب. وفي أحيان أخرى يتساءل لماذا خلقنا الله. إذا كان عشق الجمال معصية، والتمتع بنعَمِه من كبرى الكبائر، وأيّ لذّة يلقاها حين يعذّب خَلقه. ولماذا النار أولا وأخيرا، منذ بدء الخليقة. لماذا لم يبتدع وسائل مستحدثة للعقاب وهو الذي يقول للشيء كن فيكون.

طرد هواجسه دفعة واحدة وهو يستغفر ربه، وخرج رفقة الكاهن حتى **فيالي فاتيكانو**، ثم ركبا حافلة نزلا منها بعد محطة قرب قصر سان شارل، وولجا مباني الفاتيكان من جهة أخرى محاذية لسور **ليون** الرابع. رآه يخرج من خاصرته شكة مفاتيح ويشرع في فتح الأبواب، فإذا باب يفضي إلى باب، وإذا ردهة

تسلم إلى ردهة، وإذا حجرة تطل على أخرى، وإذا الأروقة الخشبية التي تطؤها قدماه خالية ساكنة تذكر بمحكمة مهجورة، وإذا الخوف يبسط على كتفيه أسدالا ثقيلة، وهو يرى الكاهن يغلق خلفه كل باب يفتحه.

داخله إحساس بأنه وقع في مصيدة لا يعلم ما وراءها، وأن الرجل يريد به شرّا لم تتضح بعد سماته. تذكر الروايات البوليسية وأفلام الرعب والحوادث الغريبة، واستنفر قواه لمعركة غامضة. نظر إلى الكاهن السائر أمامه، وقدّر أنه، بذلك الجسد الطهّْف ذي الشحم الفائض والإلية المندلقة والحركة الوانية، لا يقوى أن يلحق به أيّ سوء، ثم أوْجس من رفاق متربصين، وما يزال يفلي هواجسه ويعيد حتى فتح الرجل غرفة، وأشار إليه بالدخول وبسمة عريضة تفيض على وجهه.

غرفة ضيقة بدون منافذ. لم يكن بها غير سرير مفرد وحوض ماء صغير وكرسيّ ولا أثر لمائدة أو طعام. رآه يغادر الغرفة وهو يقول له :" استرح". ظل رغم ذلك واقفا متحفزا ثم قال في نفسه إنه يبالغ. لا شك أن الرجل ذهب يعدّ سفرة الأكل في مطبخ مجاور، وألا خوف يخشاه من رجل دين وإيمان، خصوصا وهو في بيت من بيوت الرب، وفي مكان يحج إليه النصارى من كل أوب.

وما كاد يريح جسده على الكرسي حتى رأى في فتحة الباب شيئا عجَبًا، وإذا الكاهن يقبل عليه عاريا إلا من تبّان أبيض واسع، يبين من شق في مقدمته عضو مرتخٍ، تلتمّ عليه قلفة كأعضاء الصبيان، وقد برز بطنه المكوّر وصدره السمين المشعّر، ولاحت قدماه الحافيتان أسفل ساقين لحيمتين يغزوهما الشعر من كل

جانب، وهو يفتح ذراعيه ويقول في شبق :
- أموري ميو !

انتفض واقفا كأنما لدغه ثعبان على حين غرّة، يصدّ الرجل المرتمي عليه يحضنه، فيدفعه عنه ويتخلص من قبضته. بدت البغتة على وجه الكاهن كأنه لا يصدق ما يرى، ثم تمالك وخلع تبانه واستدار بظهره وهو يصحل كالكلب :
- داري ! داري ! افعل !

تيبّس الريق في حلقه. ودّ أن يركله على مؤخرته العارية، ولكنه تذكر الأبواب المغلقة، ووجوده هو العربيّ حيث لا ينبغي أن يكون، فآثر معالجة المسألة بحكمة حتى لا تدور عليه الدوائر.

التفت إليه الكاهن، وجثا أمامه على ركبتيه، وهو يرجوه بتوسل ذليل، وعلى وجهه المدوّر ما يشبه نذير البكاء:
- تي بريغو ! أرجوك !
- أنا متزوّج ولا أفعل هذه الأشياء، قال وهو لا يعرف أي وسيلة تنجيه من هذا المأزق القابض.
-وما ضرّ ؟ ألستَ عربيّا ؟

يا ابن اللئيمة ! لو قلتها خارج هذا المبنى لبلت عليك وعلى من خلّفوك ! تمتم في قرارة نفسه، وفي باطنه يتلوى غضب كظيم حتى همّ بتعنيف الكاهن المأبون، ثم ارتدّ وقد حار ماذا يفعل، ثم نشد الحيلة فقال يطمئنه إن له أصدقاء من العرب يرغبون في هذه الأمور، وعرض عليه أن يرافقه ليدله إلى مكانهم. ولكن الحيلة لم تنطل، فقد ظل الكاهن على ركبتيه برهة يتوسل ويعيد، والعرق ينحدر من جبينه إلى رقبته وينساب على صدره ذي الثديين

المتداعيين، ثم نهض فجأة وغادر الغرفة.

علا نبضه وتوفزت حواسه، فأمسك الكرسيّ بكلتا يديه تحسبا لشرّ وشيك، غير أن الكاهن عاد ذليلا منكسا رأسه يستر جسده بالهدمة التي كانت عليه، وأشار إليه في يأس وأسى بأن يتبعه. وعاد يفتح بابا ويغلقه، وهو يمشي خلفه متوترا، والخفق في صدره يعلو وينخفض، ولم يتنفس الصعداء إلا حينما صفعته أشعة الشمس من جديد، ووجد نفسه خارج ذلك المكان الموبوء، متكئا بذراعه، ووجهه إلى أحد الجدران يقيء ويعيد، والناس يرمونه بنظرات التأفف، وامرأة تقول لابنتها :
" أرأيتِ العرب حين يسكرون ؟"

في تلك اللحظة، كره روما والطليان، والقساوسة والرهبان، والنصارى والفاتيكان، ومضى رأسا إلى الفندق، فحمل حقيبته، واتجه إلى مطار **ليوناردو دي فنتشي** ينتظر أول طائرة تأخذه بعيدا عن هذه البلاد.

حتى هذه اللحظة، لا تزال صورة الفاتيكان في ذهنه مقترنة بتلك الحادثة الغريبة.

1- تعارف

بيضـاء مثـل مزعـة القطـن، أو لـون هـذي الأرض حيـن تشـتو، ينضـح مـن وجهها، ذي التقاسـيم المرسـومة بدقـة وحسـبان، رواء العيـش الرابغ، ويشـع مـن عينيهـا اللوزيتين صـفاء، لا تشـهده ميـاه هذا البحـر الغميق إلا في حالات كالنزوة العابرة.

بـدت زاهيـة مثـل مزرعـة تـداعب الطـواحين زنابقهـا ذات الألـوان البديعـة، منتشـية برضـاب كـأس لا تعتـم أن تمتلـئ. تَميـس علـى أنغـام راقصة، يبثها جهاز **جوك بوكس** فـي ناحيـة مـن الحانـة التي يؤمهـا خلق مختلـف الملـل والنحـل، وتحـرك رأسـها، فيتمـاوج شـعرها الأشـقر على كتفيها كأنه ذهب مسفوح.

كانت تكلمه بإنقليزية لا يفهم منها إلا القليل. وكـان يحـدثها بفرنسية لا تعي منها غير بضعة من كلام.

لـم يكـن بينهمـا لغـة مشـتركة فاستعاضـا عـن الكلام بلغـة الجسد الكونية.

2- لقاء

صادفها في حانة قرب ميناء **روتردام** والجو كابٍ بارد، والدقائق مهملة، وألوان المساء اربداد رمادي تخرقه هالات الضوء الممزوجة بندف الثلج وأمواج الضباب، والحانة لغط ولهو وضجيج وأنخاب تُقرع، وأنغام تتهادى في أرجاء تضيئها إنارة خافتة، منبعثة من حبّات نور مدوّرة في السقف.

دعاها إلى رقصة فلبّت. جذبته إليها، وأحاطته بذراعيها، وحطت رأسها على صدره في لحظة استسلام مذهلة.

ازدرد ريقه مرة واثنتين، وقال في همس، وبين جوانحه خفق كالخبب:

- هل نلتقي غدًا ؟

ردّت فيما يشبه الاِستنكار :

- غدًا ؟**!** ألا أعجبك ؟

وفي قلب الليل كان يتبعها إلى مكان غير معلوم.

3- صباح

عندما تَمَشّقت عباءةُ الليل، ومازج غبشَ الغرفة ضوءُ النهار الواهن، كانت أمامه كما خلقها الباري، يصرخ جسدها الرائع بالفتنة والسموق دونما مساحيق.

تذكر نساء الشرق وأكوام الزينة التي تلطخ وجوههن فقال :

- أنت في النساء فريدة.

افترّ فمها ذو الشفاه الندية عن بسمة توقظ في النفس رغبة حامية وقالت:

- ألستُ من بلد المعجزات ؟

وقالت أيضا :

-لقد خلق الرب الكون كله إلا **هولندة** فهي من صنع أيدينا.

عندما جاءته بالقهوة، جلست حذوه تداعب يده برفق، وابتسامة صافية تضيء محيّاها ثم قالت:

- اسمي **آنـّا**.

4- قطيعة

لم يعرف ما الذي غيّرها.

توارت بسمتها فجأة، وانطفأت نشوتها، وقامت إلى روبها الوردي مضطربة الأنفاس تستر عريها بانفعال غير خافٍ. حدجته بنظرة حمّلتها كل ما يصطخب في صوتها النافت، وأطرافها ترتجف من الحنق. نظرة فيها أشياء لا تفصِح عمّا وراءها بيُسر أول وهلة، ثم صار يعي مفرداتها بوضوح.

تطلع إليها في دهشة انعقد لها لسانه، وهي تشد شعرها بقسوة، وتحرك رأسها في اضطراب ينذر بالانفجار، ونظراتها المتقدة

تتصبّ عليه كرجوم من نار، ثم اندفعت إلى الحمّام تتفّس عن كربها بدشّ ساخن.

ظل يدير خواطره في صدره، وطشيش الماء لا يهدأ ولا يتوقف، وسؤال قلق يمور بداخله كالأكال اللجوج. هو لم ينطق بغير اسمه في لحظة تعارف غريبة.

كانت لا تزال في الحمّام حين غادر البيت دون التفات.

عندما لفحته أنسام الفجر في طريق يصخب بالحركة والناس، ومض في ذهنه خاطر. أحس أنه ربما اهتدى إلى بداية تفسير لذلك التحول المفاجئ.

1 - لغة

عندما دعاه جاره أول مرةٍ إلى مقهى ضامر لتناول فنجان من القهوة، وجد في ذلك فرصة للتعرف إلى رجل لم يبادله من قبل غير التحية في رواق العمارة، طوال سنة أو تزيد منذ استقراره بهذه الدائرة شرقيّ باريس، أو حينما يصادفه في أغباش الفجر أو في عتمة المساء، وهو يطوف بكلب **برجي** يسرحه في المكان لقضاء حاجته.

كان جاره يفيض بالكلام من كل جانب حتى سأله:

- تتكلم العربية ؟

- نعم.

تردد الرجل قبل أن يضيف:

- لشدّ ما يصدمني أن أرى العرب يتحادثون بلغتهم في الأماكن العامة.

سأله وقد فهم قصده :

- وبأيّ لغة تريد أن يتكلموا ؟

- بالفرنسية طبعا.

- وهل يصدمك الإنقليز أو الألمان أو الطليان أو الإسبان حين

يتبادلون الحديث بلغاتهم ؟

ردّ على الفور :

- الأمر يختلف.

يومئذ أعجب بصراحة جاره، ولم يعد للقائه أبدًا.

2 - ردة فعل

لم تكن تعرف عنه أيّ شيء، ولم يكن يعرف عنها حتى الاسم. مجرّد جارين يقيمان في العمارة نفسها، ويتبادلان التحية كل صباح في أدب جمّ.

كانت تلقاه بابتسامة حييّة تغطي وجها مدوّرا ذا غضون دقيقة تجهد في إخفائها بالمساحيق، وهي تجوب أحواض العشب المحيطة بالمباني، رفقة كلب صغير يتبع خطاها القصيرة، يدور ويتشمم، وينثني خلف شجيرات الورد والجيرانيوم.

ومرةً أبصرته فأدارت له الظهر، حياها كالعادة فما ردّت، ولما رأته مقبلاً نحوها، جذبت رسن كلبها، وابتعدت بخطى حثيثة قصيرة، كصور الأفلام في عهدها الأول.

كانت تلك أول صورة عن دخول فرنسا حرب الخليج.

3 - إزعاج

عندما دعا إلى بيته، ذات مساء شتائي حزين، صديقته المغربية لتناول طبق كسكسي أعدّه بنفسه، لم يكن يجول بخلده أن الفرح الغامر الذي شملهما، سينقلب إلى غمّ ونكد.

لم تبق حتى لتذوّق طعامه. قالت إنها لا تحتمل نباح الكلاب،

وكان لجاره كلب يرجّ بنباح مستديم حيطان بيته الراشية التي تنفذ عبرها الأصوات، كأنها ألواح من خشب. وقالت أيضا، وهي تريه أثر عضّة قديمة في ربلة ساقها اليمنى، إنها تكره الكلاب .

عندما غادرته، وضع في المسجل شريط أغنية عربية بصوت عالٍ، لعلها تغطي ذلك النباح المتواصل الذي أفسد عليه متعته، وأسكن في نفسه الحنق، وإذا الشرطة عند الباب تستجوبه عن إزعاج الجيران.

4 - نزوة

حدثه أحدهم مرة، أن أهالي هذه المدينة ينزعجون من أي صوتٍ يخدش الأسماع، ولو كان بكاء رضيع، أو سمفونية لبتهوفن.

كلما صكّ سمعهم صوتٌ نابٍ هبّوا إلى الهاتف يستصرخون البوليس، إلا نباح الكلاب، فالكلاب عندهم مقدسة، كالبقر لدى الهندوس، لا يشتكي من نباحها أحد، ولا يعترض عليه إنسان، ولو ظل قائما كامل الليل.

ومرة كان عائدا إلى بيته.

عندما دلف إلى الرواق الضيق المفضي إلى شقته، أبصر عند بابه كلبا مقعيا يتبرّز، وامرأة شقراء واقفة ترقبه. أسرع إليه ينهره، فإذا بالمرأة تصرخ في وجهه :

- صا فا با ! نون ؟ [3]

3 Ça va pas ! Non? ما معناه : هل جرى لعقلك شيء ؟

ـــ أحلام الغواني ـــ

1 - حلم على الرصيف

على رصيف مقهى **دوفيل** بشارع **الشنزيليزي**، والوقت صيف، والشمس حامية، والظلال متخفية، والناس زحام لا يعرف الفتور، جلس يسترخي في ظل شمسية يرشف كأسا من عصير مثلّج.

راوده حلم وهو يرى الحسان حاسرات الصدور عاريات الأفخاذ يخطرن على الرصيف الواسع جيئة وذهابا، ما بين قوس النصر وساحة **الكنكورد**. حلم من أحلام اليقظة، أن ينعم في تلك اللحظة بصحبة امرأة تبادله ولو نظرة، وإذا نسوة شابات في هيئة توقد في النفس ما خبا من رغائب يجلسن قريبا منه، حتى ليكدن يلامسنه.

2 - حلم أول

قالت الأولى، هيفاء، دعجاء، ذات شعر أسود كث متين ينحدر على كتفيها العاريتين، وفخذين ممتلئين يلمع فيهما زغب مذهّب يفيضان على تنورة الكتّان القصيرة :

- أحلم برجل وسيم، قويّ، شابّ لا يتجاوز عمره الأربعين، لا أعرفه ولا يعرفني، يأخذني إلى شاطئ خالٍ مقفر، ويضاجعني بلا

هـوادة، ويـزرع فـي رحمـي بـذرته ويمضـي، ليهبنـي ولـدا بهـيّ الطلعـة، يكون لي وحدي.

3 - **حلم ثانٍ**

قالت الثانية، ربعة، ممتلئة، متينة الأساس، زيتية البشرة، تصرّ جسدها الرشيق في فستان صيفي خفيف يكاد لا يستر أيّ شيء، وعلى وجهها المسفوع تتحدر خصل في شكل غدائر بلون الحناء، وتبض عيناها الصغيرتان السوداوان ببريق لا يهدأ :

- أنا أحلم برجل لا يهمني سنّه ولا شكله ولا جنسه، يجري عليّ الرزق كما أهوى، يلبّي لي كل رغبة نزقة، ويأخذني إلى حيث أريد، وليفعل بجسدي بعد ذلك ما يشاء.

4 - **حلم ثالث**

ردّت الثالثة في زمّة من فمها الواسع ذي الشفاه الغليظة، ونترة من يدها ذات الأظفار الطويلة المصبوغة :

- وماذا نفعل في عصرنا هذا بالرجال ؟

طويلة القامة، بيضاء البشرة، على وجهها المثلث وصدرها العاري حتّى مَنبتِ النهدين نَمَش كالرذاذ، تفرد رجليها الممشوقتين كالمغازل، وهي مسترخية يكاد ظهرها لا يلامس مسند المقعد، فينحسر ثوبها الأصفر القصير عن ركبتين صقيلين في وضع مُغرٍ.

- اليوم، أضافت، لا يمكن أن نحلم إلا بالوصول إلى سدّة الحكم. أنا لست بحاجة إلى الرجال. أستطيع متى شئت، أن أنجب وحدي، وأن أربّي طفلي وحدي، دون أن أحتاج إلى رجل، بل أستطيع حتى أن أمارس الجنس وحدي إذا أردت. صدّقنني، سيجيء يوم

ينقرض فيه الرجال، ولا بقاء حينئذ إلا للنساء.

4 - حلم رابع

قالت الرابعة، وهي تلهو بنظارتها الشمسية الداكنة، تعضّها بأسنان بيضٍ متناسقة :

- وهل تستطيعين أن تقبّلي نفسَك بنفسك ؟

اتسعت الدهشة في الأحداق، وهن يتطلعن إلى صديقتهن ذات السمرة المطفأة والعينين الدعجاوين. في مثل سنّهن تقريبا، في مطلع العقد الرابع حسب تقديره، يشفّ قميصها الأبيض عن صدر رائق الفتنة، وخصر ضامر يعتلي حوضا خصيبا يكاد يطفر.

- تستطيعين أن تفعلي كل شيء بمفردك، إلا التقبيل، قالت. ولكي تكون هناك قبلة، لا بدّ من رجل.

ثم تنهدت بعمق وأردفت :

- أنا أحلم برجل يمنحني قبلة لم أتذوقها حتى الآن. ولكي تكون قبلة كما أشتهي، لا بدّ أن أعثر على رجل يحبّني وأحبّه بجنون.

5 - حلم خائب

عندما انتهين من شرب كؤوسهن وانصرفن، ظل يتابعهن بنظرات نهمة، يستطلع مؤخرات مقببة تهتزّ وتميل بشكل مثير، ثم أغمض عينيه يطاول حلما مستجدا لا يعرف كيف يمسك بطرَفه.

وغشيته غاشية من حمو دافق وهو يستعيد بتلذذ عجيب أقوالهن وأصواتهن ذات الجرس الجميل، ويرتاد أفقا خاصا به وحده، يختلي

فيه بهنّ جميعا.

ثم فتح عينيه على صوت تحريك كرسيّ جنبه، فإذا رجل أمرد أملط مورّد الخدين، يصوّب نحوه نظرات ذات مغزى، ويهزّ رأسه بنَتر شعره، كما تفعل النساء حين يدفعن قُصّة متمردة، والبسمة العريضة لا تفارق فمه ذا الشفاه القرمزية الندية.

وضع على النضد بضعة فرنكات، ومضى دون التفات، وهو يلعن الحظ العاثر.

ـــــ الحَمَام ـــــ

1- مأدبة

في حجرة يتيمة بالطابق الخامس، ذات نافذة وحيدة بغير ستار، تطل على فناء يحيط به البنيان من كل جانب، كالبئر المعطلة، لم يكن ثمة ما يزعجه غير الحمامٍ.

هو لا يهمه أن يعرف إن كان الهديل غناء أم بكاء، ولكنه كلما سمع تلك الأصوات التي يطلقها الحمام صبحا وعشية، اجتاح صدرَه غمّ يعمّق شعوره بالوحدة والوحشة وسوء الطالع.

صار يكره الحمام حدّ القرف.

وفي ليلة دعا إلى حجرته العابسة **فابيان**، تلك العشيقة الوانية التي تزوره كما تزار المقابر، لتناول عشاء فاخر أعدّه بنفسِه:

طبق من الحمام المحمّر.

2- متعة

كلما استرق النظر من خلف زجاج نافذته المغبرّ، أبصر عبر شبّاك دائم الانفراج كأبواب الجحيم، في شقة بالطابق الثاني، رجلا وامرأة في زيّ الخلق الأول، يمارسان الجنس بشراهة المحروم، يتمرغان على السرير وعلى الموكيت في أوضاع مختلفة، وعند بلوغ اللحظة العارمة ينهض الرجل ويتوارى عن الأنظار، وتبقى أنثاه منطرحة، منفرجة الساقين، مترعة بالشبق الغامر، راضية مرضية.

كانت متعته الوحيدة في الأماسي الخاوية، حين ينخرم الجيب من إفلاس، وتفتر الصلات، ثم تذوي كالأوراق اليابسة.

لم يكن له من تسلية سوى ذاك، حتى قدم الحمام لينثرَ على حافة النافذة فضلات عفنة، تسد الخياشيم، وتبعث في النفس رغبة في الغثيان لا تقاوَم، وينشرَ في الأرجاء نعيبه المشؤوم.

عندئذ جعل على نافذته حاجزا مَسيكاً وستارة سميكة لا ينضحان بنور.

3 - **رؤيا**

عندما نهض من النوم منتفضا، كان ما رآه في المنام لا يزال عالقا بذهنه، يشدّه كالرسَن الموثوق إلى رزّة.

رأى، فيما يرى النائم، سيّدنا نوح على ظهر سفينة بها من كل زوجين اثنين، تمخر العباب في غدوّ ورواح بلا هادٍ ولا مستقرّ.

رآه يرسل إلى البر حمامة، لها صوت أرق من تغاريد العنادل وأروع من شجو الكروان، تستطلع نضوب السيل وزوال الطوفان، لكي يحطّ مريدوه رحلهم ويستعيدوا سيرتهم الأولى. وفي كل مرة، تعود ندية الرجلين مبتلة الريش، إذا نفضت جناحيها سال منهما سائل كالدم وما هو بدم، حتى عادت تحمل في منقارها خطابا مكتوبا بخط غريب.

تناول نوح الخطاب وقرأه، فإذا هي شروط رسُوّه ومن معه على البرّ.

قال نوح :

- أن نتيه في الماء دهرًا أهون من الإذعان لغَشوم ظلَوم.
وقال أيضا وهو يمزق الخطاب :
- هذه شروط لو قبلناها لفرّطنا في كل شيء، حتى العِرض.

ولما همّت السفينة بمواصلة ارتحالها إلى برّ غير مشروط، نادت الحمامة زوجها تستبقيه، وادّعت أنها حازت ترخيصا يستثنيهما من تلك الشروط المخزية، فتبعها كما يتبع الخطى، بذلةٍّ وهوانٍ، ذَكَرٌ تغريه من أنثاه القشور.

عندئذ صاح فيها نوح، وقد اتّخذ وجهه ملامح بَاسِرة باسِلة :
- اذهبي ! عليك اللعنة ما حييت ! لن يسمع منك الناس بعد اليوم غير النعيب !

4 - **مخاض**

عندما وصل إلى قسم الولادة بِمستشفى **كوشان،** تطلع إليه الأطباء والممرضات بعيون فيها دهش وفيها عزاء.

في ذلك الصباح النديّ المغموم بالبرد والضباب، أيقظه رنين الهاتف، وصوت خليلته التي جاءها المخاض تستدعيه ليشهد ميلاد نسله.

لم يكن يعرف أنها حامل. كان يظن أن ما اعترى جسدها المترهل مجرّد سمنة ولّدها نهم مفرط، فإذا هي تطلق صيحات الوجع الجميل.

داخله فرح غامر أضاء وجهه. أحس أنها هِبة من السماء جاءته على غير انتظار، مثل فوز عظيم في لعبة حظ، أو إرث من قريب طوى النسيان خبره، فإذا الحلم، حين غادر البالَ، كابوس مخيف،

وإذا رجـال الصـحافة والإعلام، أولئك الـذين يعيشـون علـى مصـائب النـاس مثـل حفـاري القبـور، يملـؤون أروقـة المستشـفى، يتـدافعون بالمناكب لينقلوا للناس عجيبة من عجائب هذا الزمان :

" امرأة تضع دستة من فراخ الحمام ."

في ذلك اليوم هجر خليلته وحجرته والمدينة.

[حقيبة ثالثة]

من قال إن الحدود العربية سهلة الاِختراق، فإنه لم يسافر ولو مرة في حياته، وأغلب الظن أنه لا يزال يقرأ أدبيات الرحالة العرب الأوائل، كابن بطوطة وابن جبير، أو لا يزال يجتر حكايات جدته عن الحج على ظهور المطايا، أو أنه أجنبيّ مبجّل، خواجة كما يقول المصريون، وربما هو قائد عسكريّ من بني إسرائيل أو من حلف الناتو... ذلك أن الأقطار العربية، منذ أن تخلّصت من ربقة الاِستعمار كما يقرأ ويسمع في أعيادها الوطنية العشرين أو تزيد، سعت أول ما سعت إلى إقامة حدود كأنها أسوار منيعة الذرى، لا ينفذ منها بيسر حتى الذبّان الذكر، ولو تسلّح بألف تأشيرة دخول. حدود يتناوب على حراستها رجال غلاظ، أشداء على إخوانهم في الجنس والعقيدة، رحماء على بني مريم، وويل لمن كان من بني عدنان أو قحطان، عاربا أو مستعربا، وحدثته نفسه، والنفس أمّارة بالسوء، بزيارة صديق أو حبيب أو ضريح أحد أجداده القدامى في بلد مجاور.

كل من كان مسفوع الوجه كالح الملامح ناطقا بلغة الضاد مريب، ما لم يتأكدوا من أصله وفصله ووجهته وغايته من الزيارة، فمثله لا يمكن أن يكون سائحا والدخل في سائر الأقطار محدود،

ولا باحثا في أمة نسيت أن إعجازها كتاب، ولا مستكشفا وكلّ ما في البلاد مكشوف، تفضح الأقمار الصناعية أدق تفاصيله. لم يبق إلا الطمع في حفنة من الدولارات في الأقطار التي ابتلاها الله بالنفط، وإلا فهو مشاغب يحمل في رأسه أفكارا هدّامة، أو مخرّب يخفي في حقائبه خططا لنسف القائم وإجهاض القادم.

هو يذكر، حين حصل أول مرة على جواز سفر، أن وجهته الأولى كانت أوروبا، ولم يكن يعرف من بلاده غير المنبت والإقامة، ومثله لا يحصون عددا، في سائر الوطن الكبير، من الماء إلى الماء. ثم شاءت صروف الزمن أن يولّي وجهه شطر جيرانه، وفي الذهن أصداء ذلك النشيد، الذي حفظه منذ الصبا على مقاعد الدرس بحماس وقّاد، **بلاد العُرْب أوطاني**، فإذا الواقع ...

ما الجدوى ؟ ما جدوى الحديث عن واقع مرّ أسال حبرا كان يمكن أن يستثمر فيما ينفع، خصوصا وهو مستورد، بالعملة الأجنبية التي لم يفلح المترجمون مرة قدرَ فلاحهم في اختيار نعتها المناسب، صعبة، وفي بعض الأقطار عسيرة، وفي أقطار أخرى، حيث الجفاف والجوع والجهل، كأداء كشعاف الهملايا ؟

كأنه ينكأ جروحا قديمة، وكم بالحريّ أن تُنسى، والنسيان في عُرف عُصبته رحمة، بلسم شافٍ يلحس الدماء النازفة، ويلمّ اللحم إلى اللحم، ولكن ما من مرّة عبر فيها بسيارته الحدود الأوروبية شمالها وجنوبها، إلا واستعادت ذاكرته الرهيبة، تلك الذاكرة الإنتقائية التي لا تختزن إلا الأشياء الأليمة، ما عاناه في سبتة ووجدة وبوشبكة وراس اجدير والسلوم وحلق الوادي... وكان يحسب أنهم إخوته سيلقوْنه بترحاب، وربما بنار قِرى يتدفأّ حولها الضيف وعابر

السبيل.

كيف يمكن أن ينسى طوابير الإِنتظار ساعاتٍ طوالا تحت صهد الشمس ولفح الريح ووابل المطر، والناس همْشَةٌ مضطربة، لا تدري هل تؤتى كتابها بيمينها أو بيسارها، النظرات الشرسة الحاقدة بغير علة، الكلام الذي يسلخ الجلد ويأكل اللحم نيّئا، التهم التي تلقى جزافا بغير دليل، التفتيش المتشنج الذي يقلب الأشياء أسافلها على أعاليها، بحثًا عن المحظور، وكل ما في الحقائب محظور بقدرة قادر، حتى الكتب المتوافرة في المكتبات الوطنية، وويل لمن نفِد صبره وفقدَ السيطرة على أعصابه وندّ عنه احتجاج.

وكم كان يسوؤه أن يرى الناس يستجدون من إخوانهم شفقة، كأيتام في زاوية سيدي محرز، ويلتمسون منهم الرحمة كأنما اقترفوا ذنبًا تذلّ أمامه الذنوب، وما هم سوى عابري حدود قيل إن واضعها الإِستعمار، والإِستعمار رحل وخلّف كذبة كبرى، فضيحة بارحة تلوح مثل أنف بارز أقنى في وجه دميم.

لكم عانى الألواء على حدود أقطار لا يريد أن يسميها، حتى لا يعكّر علاقات حسن الجوار، وربما يكون سببا في قطعها، وشنّ حرب سبابية ضروس تجنّد لها الأقلام المدرّبة على هتك الأعراض، والألسن المجبولة على قذائع الحواري الخلفية، فبلاد العُرْب، كالميتة، لا ينبغي أن تُذكرَ إلا بخير.

يودّ لو ينسى فتلحّ عليه الذكرى، ذكرى ذلك الصيف القائظ، صيف مدينة رملية تتنفس الهواء بصعوبة، وتزفر أرضها الحامية أبخرة مثل دخان سجائر جُمّعت في منفضة، تلوح عائمة فوق أديم لاهب، تنهبه سيارات مجنونة لا ينقطع لها صفير، والشمس قرص من

نار لا تحتمل العين وهجه.

لم يكن يعرف أن قراره مغادرة تلك المدينة نهائيا سيفتح عليه أبواب الجحيم، وقد جاء يرفع عن أبنائها الجهل، ويمحو، كما يردِّد العرب في كل مكان، أمية لائطة، كأنها لطخة حبر صينيّ في قميص أبيض، فإذا هو كمثل زوج طلب الطلاق فاكتشف أنّ لزوجته وجها غير الذي عهده طوال عِشرة أعوام.

حزّم أمتعته وأعدّ العُدّة للرحيل، وفي الصدر وخز كالحزن الشفيف على فراق أناس طيبين من زملائه وجيرانه، وأماكن شاطرته جزءاً من عمره، ولكن كيف السبيل إلى شاحنة تُقِلّ أشياءه والحدود مغلقة، والعلاقات بين بلده والبلد المضيف في نقطة الصفر، ومهلة بقائه محدّدة بشهر، إذا تجاوزه عُدّ من المتسللين الذين يطاردهم البوليس، وتُنسَب إليهم الجرائم والسرقة، وأوراق السيارة التي اشتراها لا تكون جاهزة إلا بعد أسابيع ثلاثة... وعاش شهرا من حيرة وعذاب يطوف في الأرجاء بحثا عن شاحنة لنقل البضائع، والضيق يتنامى والأيام تتآكل وتأشيرة الخروج تنقرض يوما بعد يوم كالزاد الطفيف، ولا شيء في الأفق يوحي بانفراج.

عندما انقضت الأسابيع الثلاثة، عاد إلى مكتب البطاقات الرمادية يحدوه أمل بفض إحدى المسائل العالقة على الأقل، فإذا بالموظف الذي حدّد له الموعد يقول له، دون أن يرفع عينيه عن أوراق كان يخربشها:

- بُكرة.

رجل غامق السمرة، خفيف الشعر، مدوّر الوجه، له عينان ضيقتان وفي رقبته الغليظة أثر كيّ قديم. تطلع إليه وحاول أن

يشـرح لـه الوضـع القـابض الـذي هـو فيـه، فـإذا بالرجـل يصـوّب نحـوه نظرات صاعقة وينهره بغلظة وجفاء :

- قلت لك بكرة يا زفت !

دوّت الشـتيمة فـي رأسـه كطلقـة رصـاص، ووجـد نفسـه، بعـد لحظـة غـامت فيهـا الأشـياء والموجـودات أمـام نـاظريه، يمضـغ المهانـة في صمت، عاجزا عن التفوّه بكلمة، في بلد لا حقّ فيه لغريب، رغم الشعارات التي تملأ الشوارع، ووسائل الإعلام التي لا تمل من النشـيد إيّاه.

استوفى إجراءات السيارة قبل يومين من انقضاء المهلة وظل مشـكل النقـل بلا حل. لم يبق لـه إلا أن يلتمس تمديدا ببضعة أيام لعل الله يمنّ بـالفرَج. توجه منذ الفجر إلى قسم الجوازات والهجرة، ووقف في طابور طويل عريض يتدافع فيه الغرباء بالمناكب، وروائح العرق والصنان تثير المعاطس، يدعو الرحمان أن ييسّر أمره حتى جاء دوره بعد عناء، فإذا هو أمام ضابط بالزيّ الرسمي، حليق الوجه، ذي شوارب دقيقة تعتلي شفاها غليظة، كان يجلس خلف شباك، وما كاد يمدّ جواز سفره ويجهر بالرجاء حتى تناول الضابط الوثيقة، وردّها إليه رميًا، وقال وعيناه تنضحان بالحقد والغلّ :

- حرام فيك يوم واحد !

لم يفهم سرّ ذلك الحقد المستحكم، وتلك النظرات الجافية الـتي يُقـاس بهـا المغـترب، كـأنه عـدوّ غاصـب انـتزع المـال ونهـب الخيرات، وذلك التشفي الذي يلاقيه المغادر حتى ولو كان في مثل حاله مصحوبا بزوجة حامل.

لك الله يا بلادَ العُرب أوطاني !

عندما أشفى على اليأس، وعاد إلى بيته يجرّ ذيول الخيبة، ومض في ذهنه حل ليس بعده إلا إتلاف أمتعته والعودة إلى بلده خاوي الوطاب. استأجر شاحنة أحد جيرانه حتى النقطة الحدودية، وظل ينتظر قدوم عربة من الجهة المقابلة، تفرغ حمولتها ليعبّئ فيها أغراضه.

يوم وليلة وهو مرابط على الحدود ينتظر، وأعوان الجمارك في غنى عنه وعمن حوله، يتقترون على المسافرين بأختام المرور كأنها صكوك الغفران، والناس من حوله متربعون على خِرق أو سجّاد يطمرون رؤوسهم بين أكتافهم من إرهاق، ويتجرعون مع الماء المهانة، قطرة قطرة، وعندما أدركهم الليل، تحلقوا يطبخون الشاي أو يأكلون لقمة، أو افترشوا ألحفة وعبائن وحصرا، وحاولوا أن يخلدوا إلى النوم، وزوجته حذوه في **الرينو 5**، تمدّ رجليها ما استطاعت بحثا عن وضع مريح، ويداها على بطنها، وآلام في الظهر تحوّل تأففها النافذ إلى زفير ثم إلى أنّات قصيرة خافتة، ثم تسأله في جزع لا يخفى إلى أين تمضي لو أرادت قضاء حاجة عاجلة، وهو ساهٍ يرهف السمع لأصوات الجداجد وطنين البعوض والذباب، وكلها تعبر الحدود بلا رقيب ولا تأشيرة.

عندما وطئت رجلاه أرض بلاده، لَم يكن يعلم أن ما يترقبه أشدّ مرارة. لم يطل انتظاره لأن تفتيش العائدين نهائيا يتم في بلدة مجاورة. في طريقه إليها كان يعُدّ ما أنفق لنقل أمتعته وإفراغها، ثم شحنها في شاحنة أخرى كانت تطوي أمامه الطريق الضيقة ذات الحفر المتواترة، وزوجته تغط في النوم، ويداها متقاطعتان على بطنها كأنها تحرس جنينها من خطر داهم، وعنقها مائل وفمها

مفتوح مثل طفلة مجهَدة.

هنـاك وجـدهم متـأهبين. أعـوان جمـارك، وعملـة بألبسـة رثـة، ووجـوه ينضـح منهـا حسـد لازب وطمـع يسـيل كلعـاب رضيـع. كـان مخيّرًا بين أن يُنزِل أمتعته بنفسه، فينزِلها كلّها، لا تستثنى من ذلك حتى العلب الصغيرة، أو يكِل الأمر لأولئك العملة مقابل مبلغ يفوق الأجر الأدنى الذي يتقاضاه العامل في شهر. وأذعن، ولم يكـن أمامه إلا الإذعان، فإذا هو ضحية سطوٍ منظم. فبينما أقبل اثنان منهم على إنـزال بعض القطـع الثقيلـة، تسـلل الآخـرون بمـا خـفّ حملـه، يدسـونه تحـت آبـاطهم، ويتـوارَون خلـف الشـاحنة، ثـم يـذوبون فـي الأزقـة المجـاورة، وأعـوان الجمـارك يغضّـون الطـرف متظـاهرين بتعميـر الأوراق، وإذا هو مشتت لا يدري أي سارق يلاحق، وإذا زوجته تصـرخ باستنكار وهي تمسك أحد الأعوان، وترجّه من كمّ قميصه لتريَه ما يحدث أمامه في وضح النهار، وإذا العون ينتر يده بعنف ويقول لهـا بانفعال :

- احترمي نفسك يا مدام ! لا علاقة لنا بهم.

كـانت المسـكينة تجـري ذات اليميـن وذات الشـمال كمـن يحوش عن فراخه العقبان، وبطنهـا البـارز يكبـل حركتهـا، ثم تحـط يدها على ظهرهـا متألمـة، وتتكـئ علـى السيارة منهـارة تـذرف دموع القهـر، وأولئك السـفلة، مثـل كواسـر تنهـش بهيمـة ميتـة، يطوفـون بالشاحنة من كل جانب، يختلسـون مـا قدروا علـى حملـه، وهـو ذاهـل حـائر لا يـدري مـا يصـنع، وذلـك العـون الشـاب النحيـف يـرد علـى استنكاره ببرود دون أن يوليه نظرة :

- لاحِقهـم إن شـئتَ، أو ارفـع ضـدّهم قضـية. مركـز الشـرطة

أمامك.

عندما أفرغت الشاحنة حمولتها من الغد، وكان الوقت مساء، والجو لطيفا، والحفاوة بالغة، اكتشف أن السائق ومساعده، رغم الأجرة المرتفعة التي نالاها، ثلاثة أضعاف الأجر في الظروف العادية، لم يترفّعا عن الوليمة هما أيضا، كأنما أرادا أن يأخذا شيئا للذكرى.

كان ذلك في آخر يوم من أيام شهر أوت/ أغسطس/ آب 1979.

وجاء الخريف فأصاب الزوجة نزيف حادّ نجت منه بأعجوبة، وحلّ الشتاء فأنجبت ولدًا لم يعمّر أكثر من نصف شهر.

ــــ القطار الأخير ــــ

1 - حانة

في حانة صغيرة على مشارف محطة الأرتال ببروكسل، جلس على مقعد مرتفع، وضعه وجها لوجه مع نادل بالغ الحمرة واليباس، بجفونه أورام، وبرقبته عثنون متدلّ، وبأرنبة أنفه المكوّرة دَوالٍ مستدقّة، واستند إلى الكنتوار الصقيل يَعُدّ الدقائق في انتظار قطار باريس.

كان الوقت ليلا، والغمام ضاربا باربداد عاتم، والدفء يسري في الأوصال الباردة بدبيب واخز، والأنوار تجيء خفيفة من أعلى الجدران المزدانة بلوحات تجريدية كابية، والزبائن يشربون في عزلة صامتة.

طلب كوبا من اللبن، فتوقفت الحركة لحظة، وشعت في العيون، عيون الشاربين، ضحكة جامدة، كأنها قهقهة بدت معلّقة حينا، ثم انطفأت وتراجعت مثل رؤوس سلاحف انطمرت تحت الدرقات.

2 - امرأة

صفن عن معصمه يتفقد الوقت، ثم أفرغ كوب اللبن في جوفه على عجل ودفع الحساب وهمّ بالاِنصراف، وإذا وقع كعب حريمي

يقتحم المكان. التفت فإذا امرأة بقامة فرعاء، وردف مليء يكاد يطفح من تحت تنورة قصيرة، تنحسر عن ساقين تزيدهما الجوارب السود طولا ومشاقة، وإذا ذهول مفاجئ قد غشي الرجال، كأنما رمتهم المرأة بنثار سحريّ. عيونهم شاخصة تتابع دخولها المهيب، ونبضهم يجاري وقع كعبها العالي.

ازدرد ريقه وتجمّد في مكانه.

وفي لحظة نسي باريس والساعة والقطار، وطلب قدحا يريد أن يستطعم البيرة البلجيكية الشهيرة.

3 - **ندم**

تبسمت المرأة عن أسنان كالبرَد المرصوف، وقد جلست غير بعيد عنه، على أحد المقاعد المرتفعة، فازداد ثوبها انحسارا عن وركين أشعلا ما كان خامدا في نفسه من شهوة.

كانت تنظر إلى مرآة عريضة خلف البار، حيث الكؤوس والقوارير، كأنها غائبة عمّا حولها، وحقيبتها اليدوية السوداء تنام على ركبتيها.

لم يعد يعبأ بالوقت. سيركب قطار الرحلة التالية. كذلك فكر، وهو يختلس نحوها النظر، يرقب لحظة يجترئ فيها على حديث قد يأتي من ورائه ما يأمل، حين رآها تفتح حقيبتها وتخرج سيجارة، ثم ترشقه بلحاظها الفاتنة كأنها تسأله ولاّعة.

مدّ يده إلى جيبه في لهفة، وتذكر بمرارة أنه عدل عن التدخين من وقتٍ قريب.

عندما أبصر الرجال يهبّون نحوها متسابقين، يعرضون عليها ولاعاتهم، داخله ندم شديد على تركه التدخين.

4 - **نوبة عامة**

كان قد تَجَرّع آخر قطرة في كأسه، وسرى في جسده دبيب النشوة ، وغشي عينيه احمرارٌ ورأسَه سخونة، وهو يميل بطرفه نحو تلك المرأة الفاتنة، وكانت ترشف قدح الويسكي الممزوج بالكوكا في صمت، وتمر بلسانها على شفاهٍ لمياء ممتلئة، حينما صكّ سمعه من ركن في الحانة صوت أحد الندامى:

-تورني جنِرال ! [4] على حسابي !

رجل عريض المنكبين، خفيف الشعر، في عينيه الجاحظتين بريق السكر يلمع باهتياج، ضرب بقعر كأسه على النضد، ثم مدّ إصبعه نحو الكنتوار كأنه يصدر أمرا فصلا لا يقبل جدلا ولا اعتراضا :

- إلى أين ؟ أنت أيضا معنا !

بدا عليه التردد وهو ينظر إلى ساعته، ويتذرع بموعد القطار، وإذا بالرجل يشهد المرأة:

- لا يصحّ ! أليس كذلك يا مدموازيل ؟

افترّ فمها المرسوم بدقة عن ابتسام، وهي تومئ برأسها، فيتمايل شعرها الذي ينتهي من وراء بخصل مسبلة تبلغ مجمع كتفيها، وتنسدل على جمازة الجلد الأسود التي تصر جسدها البارع، فإذا هي تعمّق إحساسه بأنه، أمام الجمال، مسلوب الإرادة، منْزوع

---

4 نوبة عامة .

السلاح.

5 - **تنافس**

عندما غادر الحانة، كان طافحا لا يتماسك ولا يتمالك.

من نوبة إلى نوبات تنافس الرجال، حتى هو، في جود طارئ، وأداروا الطاس والكاس ولعبت الخمر ألعابها، فإذا هم يراقصون المرأة بالتناوب على أنغام يبثّها **الجوك بوكس**، وإذا النادل يفرك يده مغتبطا بحفنة البقشيش التي انهالت عليه، وإذا الحانة أشبه بعلبة ليلية.

وهيأ نفسه ليراقص بدوره المرأة، وقد ذهبت البيرة باحتشامه، فإذا بالموسيقى تتوقف فجأة، ويتوقف معها اللغط والضحك والتعليق، وإذا رجل وسيم طويل، بمعطف كشمير كحلي، يقتحم الحلبة، ويطبع على ثغر المرأة قبلة ثم يخاصرها ويغادران المكان.

رآها تلتفت إلى الرجال مودعة وهي في حال أقرب إلى السكر.

عندما بلغ المحطة، كان آخر قطار إلى باريس ينساب على السكك مبتعدا وأضواؤه الحمر تتناءى قبل أن تختفي عند منعرج.

ـــ بياتسا غاريبالدي ـــ

1 - باعة

عندما ترك اللوكندا في مساء يوم عبوس، ونزل إلى الشارع يسرّح خطاه في ساحة بسرّة نابولي، يتوسطها تمثال **غاريبالدي** شامخا، متحديا أمطارا تنثّ وجوّا مربدّا ينذر باعتكار، صادف في طريقه مصريين يبيعون الترمس وتحفا فرعونية رخيصة، وألبانا يستجدون، وتونسيين ومغاربة وإيطاليين يتاجرون ببضائع مسروقة أو مهرّبة، وآخرين يعرضون على المارة، في حذر مصطنع، دولارات مزيفة.

رآها على قارعة الطريق تحت كنّة فندق شعبي تعرض مفاتنها.

كانت شابة، ذات شعر مقصّب، وصدر ناهد لا تكاد تستره، وساقين مليئتين مكشوفتين للمارة.

دنا منها وفي صدره رغبة يريد أن يسكنها، فإذا بها تقول له، وهي تنظر إليه بطرف عينيها الواسعتين :

- نون لافورو كون سترانييري.[5]

2 - شراب

في شارع ضيق مجاور، تخرقه حبال غسيل تصل المباني

---

5 لا أشتغل مع الأجانب .

المتقابلة بعضها ببعض، وتلوح في أعطافه براميل فارغة، يتدفأ على حوافها الناس بأوراق وأخشاب يوقدونها داخلها، وصناديق كرتون يعرض عليها باعة شبّان ٌسجائر بالتفصيل، أبصر الناس يتزاحمون بالمناكب قدّام دكّان يفوح منه قتار وبخار.

دفعه الفضول إليهم، فإذا هم يتجرعون شرابا ذا لون بنفسجي داكن، كأنهم يتساقَون عسلا مصفّى. اختلط بالزحام، وأعد بضع ليرات وهو يتلمظ اشتهاءً قبل أن ينال كأسه، ولما جاء دوره ارتدّ كسلحفاة تطمر رأسها خلف درقة.

كان الناس يجرعون ماء أخطبوط مغلّى.

3 - ري□الو

عندما نزل بنابولي، كان على غير عهده بنفسه، يساوم في كل صغيرة وكبيرة، وقد علمه أصحابه أن يردّ على كل ثمن يتلفظ به التجار الطليان بجملة في كلمتين :"طروبّو كارو" أي باهظ الثمن.

في ذلك المساء، دخل متجرا لشراء بعض الملابس، وكان كلما ذكر التاجر أو معاونه رقما ردّ عليهما بتلك العبارة، وكم كانت دهشته حين خبر جدواها، فقد ظفر بأشياء كثيرة بثلث الثمن المعروض وحتى بربُعِه.

كان ذلك التاجر القصير المدموك، ذو البطن البارز والعينين الضيقتين والأنف الدقيق، ذرب اللسان، خبيرا بأصول مهنته، يكاد لا يتمّ صفقة حتى يعرض صنفا آخر من تلك الملابس التي تستهوي النساء.

اشترى فوق ما أوصت به الحرم المصون، ودفع من الليرات قدرا كبيرا، وإذا التاجر يقدم له علبة مستطيلة، بها إيشارب حريمي، ويقول له، وفي عينيه الصغيرتين بريق ابتهاج :

- ري□الو.[6]

وإذا بحريفه يردّ عليه:

- طروبّو كارو.

4 - تحت المطر

عندما عاد إلى اللوكندا، في ذلك المساء الشتوي البارد، وبيده أكياس مبللة، ومطرية تقطر، وقد انفجرت السماء بوابل غمر الطرقات، وأخلى الأرصفة من روّادها، وجدها جالسة على إحدى درجات السلم، تفرج ساقيها اللحيمتين، وتدلي ما بينهما حقيبتها اليدوية، تحاول أن تستر عريها الفاضح.

كانت مبللة مثل فرخ البط، والقطر يبضّ من شعرها، الذي زاده المطر انحسارا عن أذنين يلمع فيهما خرصان صغيران.

حينما رأته نهضت إليه، وابتسامة عريضة تضيء وجهها الصافي المدوّر، فإذا هو يقول كالمعتذر بعبارة لا يدري متى حفظها :

-صونو سترانييرو.[7]

وولاها ظهره وواصل الصعود.

---

6 هدية .
7 أنا أجنبي .

1 - غرناطة

مدينة لا يعرف الزائر كيف يلقاها.

في أعطافها أصداء شدو ونحيب من عهد قديم، وفي مذاقها حلاوة النصر ومرارة الهزيمة.

ضدّان يأتلفان في جسد واحد، كالموت والحياة.

مدينة شاءت لها أقدارها أن تكون شاهدا على نهاية عصر وبداية عصر، كأنها حدّ فاصل بين عهدين، علامة فارقة يستقرئ فيها كل زائر ما يريد.

عندما كان يستمع إلى مرافقته الأندلسية، خيّل إليه وهو يلمس في كلامها الذي تقطعه بزفير، أنه كان يسمع زفرة آخر حكام السلالة، وإذا هو يردد أبياتا من تلك القصيدة التي تُنسب إلى أبي البقاء الرندي، ومطلعها :

لكل شيء إذا ما تمّ نقصانُ فلا يُغَرّ بطِيب العيشِ إنسانُ

2 - رجع قصيد

عندما حلّ بتلك الديار، كان كمن جاء ينبش ماضيه بعد غياب.

إشبيلية، بلنثية، قرطبة، مالقة، مرثية، شاطبة... وغرناطة، معقل

الجرح الأخير.

كلها تحوي في شوارعها وساحاتها ومنعطفاتها أثر الندوب القديمة، وفي ألسن أهلها بقايا أحرف عربية لا تزال تعتلق، تشهد على حضور لم تمحه من الذاكرة الأعوام.

رنا بفكره إلى أولئك الذين سقاهم الدهر كدَرا بعد صَفو، وأذاقهم مرّا بعد حُلو، فعاودته تلك القصيدة الكارثية التي لم تفقد راهنيتها حتى اليوم :

تلك الأمورُ كما عهدتها دوَلٌ من سرّهُ زمنٌ ساءتهُ أزمانُ

3 - آخر أحفاد السلالة

وجه في لون المنيوليا عند أول المساء، عينان صافيتان بأهداب سود حوالك، يستقيم تحتها أنف مستدق، بمقدمته خَنَس يعتلي شفتين نديتين، للسفلى امتلاء وانحدار مُغريان. وجه يلتم حوله شعر في سواد ليل شتائي، وينزل حتى مجمع الكتفين، إذا حركته له حفيف مسموع.

لقيها صدفة، وكان ينقل خطوه على الثرى المفقود، يجوب المعالم يبحث في جوانبها عن بصمات ماضٍ بعيد.

عندما ألقى عليها سؤالا لم يكن يحتاج إلى إجابة من فرط الملامح البادية واللكنة التي لا تخطئها الأذن :

- إسبانية ؟

ردت باعتزاز كأنها بنتُ حسَبٍ تنتسب، على طريقة العرب القدامى:

- من غرناطة.

4 - زيارة

عندما دعته إلى بيت عتيق بناحية من غرناطة القديمة، راوده الظن الأثيم، وهو يسترق النظر إلى قوامها الممشوق، وخصرها الهضّ، واستداراتها المقببة التي تلفت أنظار المارة، أنه آنس من يُسكن أوجاعه وينسيه زمن الفاجعة، فإذا هي تلهب في ذهنه الذكرى، كمن يرش الملح على الجرح النديّ، وتقوده إلى غرفة تضوع في أرجائها روائح الأضرحة القديمة والأقبية المهجورة. روائح ندّ ومسك وبخور وكتب عتيقة وأثاث لم تلمسه الشمس من زمن قصيّ.

- هذا منْزل جدّي الأول، وهذه أشياؤه التي صانها عن عيون محاكم التفتيش منذ عهد بعيد.

مخطوطات سميكة بالية بالخط الأندلسي، سفرة من خشب صقيل عليها صينية وأباريق من فضة منقوشة، زرابيّ ذات منمنمات شرقية مفروشة، وعلى الجدار ترس نقشت عليه كلمات عربية غائمة الأحرف، يحمي خلفه رمحا قائما وسيفين معقوفين متقاطعين، تعتلي جميعها سرجا مطهّما وركابين، وفي ركن فوق إسكملة من أبنوس محمل مفتوح عليه مصحف، قالت إن جدّها عاد به من مكةّ. وفي إطار بنّي داكن، مرسوم سلطاني، ختم بطغراء آخر ملوك غرناطة.

ليلتها ودّ لو يبيت في تلك الغرفة، يقلب أسفار العهد البائد، يبحث في تلافيفها عن أمجاد الزمن الضائع، غير أن مرافقته، لسبب

لم يسألها عنه، قالت له:

- دعها لغد أو بعده .

ولم ترجئه المواعيد المضبوطة سلفا لا لغد ولا لبعده.

ـــ على خطى أوليس ـــ

1 - حفيد

تساءل وهو يطأ أرضًا في كل شبر من أديمها أسطورة، عن أولئك الآلهة الذين لم تُبقِ منهم الأيام غير صوَر جمّدها رسام أو نحّات أنسِيَ ذِكره.

تساءل بأي مكان لجؤوا، فيم يفكرون، وكيف ينظرون اليوم إلى عالم فرّ من بين أيديهم، ولاذ بالشمال البارد، ثم عبَر المحيط.

كان يفتش عن وجوه خيّل إليه أنه يعرفها من زمن سحيق. وجوه عاشرت صباه وشبابه، ولم تغادره حتى حينما اشتعل الرأس شيبا.

عندما جلس إلى محدثه، في ذلك اليوم الذي اختنق فيه كل شيء، على رصيف مقهى بسرّة أثينا يذكر بفوضاه وضجيجه وأثاثه البالي بمقاهي باب الجديد أو باب المنارة، لم يكن يرعي الحديث سمعَه.

كان يبحث في ملامح محدّثه عن أحد أجداده القدامى.

2 - جزر

عندما كانت السفينة تشق عباب بحر إيجة، مدّ البصر يبحث عن تلك الهضبة التي ألقى الملك الأسطوري من عليائها نفسه، حين رأى الأشرعة المقبلة لم تغادر سواد الحزن والهزيمة.

كانت السفينة التي تقِل ّعلى متنها فقراء البلاد الموسرة، تجوب الأنحاء وسط جزر صغيرة لا تحصى عددا كأنها حجارة منثورة على سطح ماء ضحل، يهدهد الموج أطرافها فيتناثر الزبد كأنه رغوة صابون.

تساءل، والسفينة تروغ بين تلك الصخور كما يروغ الساعي في طريق موحلة، أيّ ذنب اقترف الأوائل حتى أغضبوا الآلهة، ففتّتُوا هذه الأرض شظايا.

3 - **سهاد**

عندما وضعت أمامه نادلة قمحية شابة، بقامة متوسطة الطول والامتلاء قدح الأوزو [8]، شكرها :

- أوفخاريستو.

- تتكلم اليونانية ؟ قالت، ورقراق ابتسامة يفيض على وجهها الغض المدوّر.

حرك رأسه بالنفي.

كان في مقهى صغير على ضفاف **بيرغوس**. جو هادئ، وسماء صافية، وهضاب تذكّر بسواحل قربص وسيدي الرايس.

عندما نقد النادلة ضعف ثمن شرابه، أهدته بطاقة بريدية خطت عليها بضعة من كلام، ترجمه له موظف الاستقبال حينما عاد إلى

---

8 شراب كحولي مخلوط بالأنيسون .

الفندق:

" لو كان للقمر وجه امرأة لسهر من أجله العشاق."

عندما أطل الفجر كان لا يزال يبحث للكلام عن معنى خافٍ.

4 - **أوليس**

عندما استرخى من عناء رحلة إلى جزيرة **كريت**، وبسط جسدا اشتد حنينه إلى الراحة، طالعته صورة تزين جدار غرفة الفندق. صورة **أوليس** على ظهر سفينة تصارع الموج.

كان لا يزال يبحث عن معنى لرسالة تلك الفتاة القمحية حين سحبته رؤية **أوليس** إلى عوالم أخر، عوالم الحرب والسحر والآلهة الغاضبة والرحلات التي لا تنتهي عبر أرجاء المتوسط.

قفزت إلى ذهنه صور من أفلام **الببلوم** التي أنتجتها **هوليود** و**تشيني تشيتا**، أفلام سكنت في ذاكرة الطفل الذي كان.

تساءل هل كان **أوليس** يرغب حقا في الرجوع إلى **إيتاكة** حيث **بينيلوبي** في انتظاره منذ سنين.

تساءل أيضا إن كانت **بينيلوب** راضية بغيابه، قانعة بحياة ليس فيها إلا أن تنقض غزلها أنكاثاً، في انتظار عودة الحبيب الغائب.

وردّه إلى يقظته رنين الهاتف جنبه، فتساءل هل كان **أوليس** يستطيع التخلف عن زوجته كل تلك السنين، لو كان له هاتف نقال.

5 - **وجه أليف**

كان ينقل طرفه حيثما مرّ، يرعى الضحك والهمس والدبيب على الثرى سمعَه، فلا يطالعه غير الآلهة في أوضاع مختلفة، ولا تحمل له الأنسام غير جلجلة أصوات قادمة من أغوار سحيقة.

كان يغوص في الزحام، ويرتاد المقاهي والخمارات في **هيراكليون** و **أثينا** و **رودس** و **كالاماتا** و **بتراس**، فلا يظفر بذلك الوجه الذي اعتشّ بذهنه من سنين.

وجه لم يكن يبحث في البلاد كلها عن سواه.

كأنه يختزل صورة الإغريق في الماضي والحاضر.

وفجأة رآه وسط حلقة يطلق ضحكاته العالية ويشوّر بيديه، وهو يفيض بالكلام من كل جانب، والندامى من حوله شاخصون.

ناداه بصوت جهد في إعلائه على اللغط الطاغي :

- **زوربا !**

فما التفت وما ردّ.

[حقيبة رابعة]

عندما رآها أول مرة، في ذلك الملتقى الذي جمعه بمحاضرين من بلدان مختلفة، داخله شعور غامر بأنها ليست غريبة. شيء ما كان يوحي له بأنه صادفها من قبل في مكان لا يذكره، وزمان لا يعرف إن كان بعيدا غمّته تصاريف التيه بالصور والذكريات، أم قريبا طريّ العهد نديّ الملمَس. شيء لا يجد له تحديدا كالفكرة الغائمة، ولكنّ رفرفة بداخله يكاد لا يعقلها، كلما تطلع إليها خلسة، يتملّى وجهها الصافي المدوّر، وشعرها القصير ذا الخُصل المقصّبة، وابتسامتها الحيية الصامتة، حين تمط شفتيها النديتين فترتسم غمّازتان صغيرتان كرأس دبّوس أسفل الوجنتين المتوردتين، وعينيها اللتين تشعان من خلف نظارتها الطبية بومض شفيف يبعث في نفسه راحة محببة، رفرفة تشمله بدفء لذيذ يحس خلالها أن ذلك ناتج عن معرفة سابقة.

هي أيضا قالت له إنه يذكّرها بأولاد سيدي خالد، تلك العشيرة النائية التي استقر بها المقام في مضارب البدو بتوسنينة على مشارف مدينة سو□ر. سمرة الوجه، يباس العود، طول القوام، وتلك النظرات التي تقول أشياء كثيرة دون كلام.

راحلة مثله، جاءت تروي أحداث الزمن الغابر، تحيي من تحت ركام الرماد جذوة الماضي البعيد، حكايات تناقلتها العشيرة جيلا بعد جيل، حكايات الأغوال والأهوال والسلاطين والإنس والجان، حكايات حفظتها عن أمها حين كانت تهدهد قبل النوم ابنتها تحت خيمة في الفلاة، حيث الظلام والسكينة والخيال والذاكرة. فإذا هي تعيده إلى طفولته في دوّار شارن على عدوة وادي ملا، عندما كان يستلقي في حِجر جدّته فاطمة، أو يتوسّد ركبتها الهزيلة، فتفلي قُصّتَه، وتحكي له حكايات غريبة عجيبة، عن بقرة اليتامى، عن علي بن الملاّسيّة، عن محمّد بن السلطان، عن الذيب الذيبوني... وهو يغالب النعاس لكي يستوفي الحكاية ولكنّ النعاس كان في كل مرة يغلبه. وحين يدركها من الغد في الإسطبل أو الحقل أو الجنان لتكمل له حكاية أخذت بمجامع قلبه، تحملق فيه بعينيها الذابلتين اللتين تغشاهما سحابة الهرم، تفتحهما على وسعهما وتقول له:

"لا يجوز، لو خرّفتُ لك في النهار فسوف تصبح أقرع."

ولشدّ ما كان يبهره أن يسمع تلك الراوية، تسرد بعضًا مما اختزنته ذاكرته، بلسان فرنسي، والناس من حولها منشدّون إلى صوتها العذب الرخيم، وأطوار تَقلّب الأبطالِ من حال إلى حال، وأجواء تلك المضارب البعيدة بعاداتها وطقوسها ورموزها ومفرداتها، وهم يقارنونها مع قصص أممهم، يبحثون في تلافيفها عن سمات التماثل والتنافر، وعناصر الإئتلاف والإختلاف فيما يسمعون.

عندما صار يألفها وتألفه، كانت تجلس إليه الساعات الطوال، في صالون بيتها المفروش بالأكلمة والزرابي وجلود الخرفان، حيث

أرائك عربية الصنع من خشب محرّج ذي طلاء بنّي مبرنق، حول مائدة سداسية الزوايا، عليها طبق نحاسيّ منقوش. صالون تزين جدرانه لوحات حروفية جميلة، تنويعات بالخط الثلثي وأخرى بالخط الديواني الجليّ، دفّ معلق فوق شبّابتين متقاطعتين، لوح كتّاب ممحوّ بالطين، كتِبت عليه بالسماق فاتحة الكتاب بخط مغربي معرَّق، وفي ركن من الصالون المستطيل، قرب مكتبة تعج بحكايات شعبية من المدونة التراثية العربية والعالمية ودراسات لبعض من اشتغلوا عليها، كانون مملوء بالجلّة [9]، يتربّع على أثافيه غنّاي [10] حواشيه مسودّة بالسخام.

كلما التقى بها في مساءات تعبق بروائح المسك والعنبر، تحكي له حكايات قامت بجمعها ما بين تيارت وسو□ر وتوسنينة، ثم تشرع في تفكيك عناصرها، وتحليل مكوّناتها، وتأويل وحداتها، للوقوف على خصائص المجتمعات التي نبتت فيها، وخلفيتها الذهنية، ومعتقداتها وقيمها وعاداتها، وهو ينصت إليها بإعجاب، يكاد لا يصدّق أنّ حكايات بسيطة، كانت تمرّ بذهنه عفو الخاطر، يمكن أن تكون محمَلاً لسماتٍ حضارية عريقة .

كانت تقول له إنّ الإنسان، كما لا يمكن أن يعيش بلا وطن، لا يمكن أن يعيش بلا ذاكرة، وإنّ ما تقوم به هو صَوْنٌ للذاكرة من التلف والاِندثار، لكي لا تظل الصدور مقفلة على ودائعها حتى الهجعة الأخيرة، ودائع لم يحفل بها هذا العصر ذو الإيقاع الرهيب والمستحدثات الخلاّبة. فمن الذي لا يزال اليومَ يصغي لخرافات العجائز، ومن الذي يجد الوقت لذلك.

9 خِثْي البقر الجاف .
10 طاجن من طين يُطهى فيه الرقاق والخبز الفطير .

ومرةً قالت له إنّ العجوز التي تموت هي مكتبة تحترق.

تذكّر جدّته. عندما استقرّ بأهله المقام في العاصمة، كانت تزورهم بين الفينة والأخرى، تحمل في قفتها البالية جرادق شعير وقطع حلوى وحبّات فواكه وفرّوجا أو اثنين، لكي لا ينسوْا رائحة الأرض كما تقول، وكانوا في أول عهدهم بالمدينة، ينشغلون عنها في الأسمار بالتمثيليات الإذاعية، ثم ظهر التلفزيون، فلم يعد يُسمح لأحدٍ بأن تندّ عنه نأمة. كانت العيون منشدّةً إلى ذلك الصندوق العجيب، ترقب الصوَر المتعاقبة في صمت لا تُسمَع فيه لاغية، وعندما يبلغ السهر مداه ينفضّون من حولها نحو مخادعهم، ويبقى هو بجانبها، يحطّ رأسه على ركبتها لعلها تهدهده بحكاية، ولكن الوسن يكون قد بدأ يمهّد زحفه على جفونها الذابلة فتتنهّد في أسى، وتتثاءب باستسلام وتنام.

وفي يومٍ شدّت رحالها وعادت، لعلها تجد في دوّارها النائي الذي لم تصبه لوثة المدينة من يصغي إلى حكاياتها، ويستفيد من ودائعها النفيسة، وظلت هناك حتى جاءه نعيها. عندئذ مازجه ألم وحسرة. ودّ لو يبعث الماضي بتفاصيله ليغترف من معينها ما طوى النسيان ذِكره.

في تلك الأماسي الدافئة المجللة بروائح المسك والعنبر، حينما ينصت لخرافات صديقته الجزائرية، كان يسمع صوت جدّته وهي تفلي غفرة شعره، وتحمله إلى زمن غير هذا الزمان.

ـ حكاية الرجل الذي لا يريد أن يموت ـ

زعموا، والله أعلم، أن رجلا كان لا يريد أن يموت. كان خائفا مثل سائر الخلق، فالموت كالشمس لا يمكن للمرء أن يواجهه بنظرة، ولا يملك إلا أن يغضي أمامه البصر، ولكن هذا الرجل كان يرفض فكرة الموت، يأبى أن يقرّ بأن الموت كالليل لا بدّ أن يدركه وإن خال أن البَون عنه شاسع، لا يريد أن يستسلم لما يقال حوله بأن المنية تصيبه ولو كان في بروج مشيدة.

وفي يوم حزّم أمره ورحل، يبحث في أرض الله الواسعة عن بلاد لا تعرف الموت.

وكان كلما حلّ بأرض، سأل أهلها عن المقبرة، فإذا ما دلّوه إليها، شد رحله واستأنف السير، حتى نزل بأرض تحيط بها تلال جرداء، ليس عليها إلا أعواد من الطرفاء الكالحة، وأشواك العوسج ورفرفة طيور عابرة.

عندما سأل أهلها :

- أين توجد مقبرتكم ؟

نظروا إليه في دهش مشوب بارتياب وقالوا:

- ليس لنا مقبرة.

أشرق وجهه بفرح غامر، وأحس أنه أدرك غايته بعد طول مشقة

ونشـدان. وبـات ليلتـه هـانئ البـال سـعيدا بهـذه البلاد الـتي لا يـدخل أرضها الموت، ولا يأتيها نحيب ولا نديب.

ومـن الغـد سعى فـي أرجائها بحثـا عـن عمـل يكسب مـن ورائه قـوته، حـتى قـاده السـعي إلـى نجّـار قبلـه، وعلّمـه حـتى حـذق أسـرار المهنة، وأظهر فيها مهارة وإخلاصا وأمانة.

وكان للنجار بنت، ولما رأى من صانعه دماثة في الخلق وجدّا في العمل وأمانة في تصريف شؤون الدكان، عرض عليه أن يزوجه إياها حتى لا يبقى غريبا وحيدا ليس له من يتولى أمره.

ووجد الرجل في ذلك نعمة من الله، فتزوج لكي تكتمل سعادته، وعاش مع زوجته التي حبته عطفا ورعاية في عيشة راضية. وما هي إلا سنة أو تزيد حتى أنجبت له ولدا حسنَ الصورة ملأ البيت حبورا وبهجة، والرجل في فرحة متوهجة ينوء بدفق الحياة الذي اكتسحه.

ومرت أعوام، والرجل سعيد بابنه الذي بدأ يدرج ويلهو مع أترابه في مرح، وبزوجته التي كانت تنسيه بكلامها العذب الرقيق، ولفتاتها الحانية عناء يومه وبرد لياليه، إلى أن جاء يوم تعكرت فيه صحة الزوجة ولزمت الفراش، ثم اشتد بها المرض، فحار في التوفيق بين العمل ورعاية زوجته وابنه، ولم يجد بدّا من أن يستجير بأمها حتى تتولى القيام بما يلزم تجاه ابنتها وحفيدها.

وفي فجر يوم خريفي مشمس، قصد بيت حمويه، وما كاد يخبر الأم، وهو من الغمّ في غاية، حتى أسرعت إلى زوجها تستنهضه بصوت حازم:

- أسـرع ! أحضـر السـكين والسـاطور ولا تنـس أن تشـحذهما جيّـدا ! أيـن القصـعة ؟ وأيـن وضـعت القرضـة يـا رجـل ؟ آه ! هيّـا ساعدني على حمل الأواني !

ورأى حماه وحماته تدبّ فيهما صحوة نشاط مباغتة وهما يعدّان أدوات الذبح وأواني الطبخ، وهو ذاهل حائر لا يفهم ما الذي أصابهما بغتة، حتى ظن بهما الظنون. قال في نفسه :"لعلهما لم يسمعاني، وإن سمعا، فربما لم يفهما ما قلت، وهما عجوزان ينحدر بهما العمر إلى أرذله" فأعاد :

- مـاذا تفعلان ؟ قلـت لكمـا إن ابنتكمـا مريضـة جـدا، فـإذا بكما تنشغلان عنها وحتى عن السؤال عن صحتها بإعداد أواني الأكل !

وإذا بالمرأة تقول له في استنكار، وهي لا تهدأ ولا تتوقف عما هي فيه :

- وماذا تريدنا أن نفعل ؟ ينبغي أن نعجل بذبحها قبل أن تموت، وإلا فسـوف يُـرْوِح لحمُهـا ويَزْنَـخ ويتلـف، ولـن تكـون فيـه بعـد ذلـك منفعة.

وقـف شـعر رأسـه فجـأة، واتسـعت عينـاه حتـى كادتـا تغـادران قلتيهما، ولبسه خوف ارتعدت لشدته مفاصله، فخرج يجري لا يلوي ولا ينثني. وما كاد يبلغ البيت حتى خطف ابنه ورماه على كتفيه، وفر هاربا، يجري كأنه ريح تحمل المَوْر وتجرّ الذيل.

ظل يجري دون أن يتوقف، وأنفاسه تكاد تنقطع، وابنه فوقه يهتز ويردح. ولما أدرك أنه ابتعد عن تلك الأرض، وصار من أهلها في مـأمن، وقـف علـى عـدوة وادٍ، وصـدره يعلـو وينخفـض ككيـر

الحداد، وفي قلبه خفق شديد، وفي فمه ريق ناشف، وهو يكاد لا يصدق ما سمع.

قال في نفسه، وهو يهم بأن ينزل ابنه ليستريح قليلا، ويبلل شفاهه بشربة ماء قبل أن يستأنف السير:

- تبّا لهذه البلاد ! يا لطيف ! الموت ولا الذبح بسكين.

رفع ذراعيه عاليا ليسحب ابنه من فوق منكبيه وينْزله، فإذا بالابن يعقد رجليه الصغيرتين بقوة حول رقبة أبيه، ويمر عليها بكفيه الطريتين قائلا:

-إيه ! ما أشهى رقبتك يا أبي ! والله لتصلح أن يطبخ بلحمها طبق من الكسكسي الشهيّ !

وإذا بالأب ينتفض مذعورا، ويجذب ابنه بعنف ويلقي به في الماء في رمية واسعة، فحمله الوادي. ثم أطلق الرجل ساقيه للريح، كأن وراءه ضواري جائعة. كان يجري دون أن يلتفت خلفه، حتى بلغ أرضا بها عشب بارضٌ، ورياض مزهرة، وأشجار ملتفة، وطيور صادحة يردد شدوها نسيم بليل.

عندما رأى أهلها، بادرهم بسؤال لم يكن على شفتيه غيره :

- هل توجد بأرضكم مقبرة ؟

نظر الناس إلى الغريب في دهش وقالوا له :

- طبعا.

قال ولم تتبسط أساريره تماما :

- أين هي ؟

أجابوه والحيرة في الوجوه مرتسمة :

- انظر. إنها هناك.

عندما وقع بصره على الجبانة، ورأى شواهد قبورها قائمة، رفع يديه إلى السماء وقد اغرورقت عيناه وقال:

- الحمد لله !

زعموا، والله أعلم، أن مؤدبا شابا جميل الخلقة، بهيّ الطالع نزل بإحدى القرى الضاربة في الأرض اليباب، يعلم الصبية حفظ القرآن.

وكان دمث الأخلاق، نقيّ السريرة، خدوما، لا يتنكب عن مساعدة أهالي القرية فيما يلتمسونه منه، حتى أحبوه كأنه واحد منهم. وكان لا يلقى منهم، في غدوّه ورواحه ما بين بيته والكُتّاب، سوى هشاشة الوجه وحلاوة اللسان، يستبشرون بقدومه مثل وجه السعد.

وفي مرة، وهو في طريقه إلى البيت عائد من الكُتاب، التقت عيناه بعيني فتاة عند فرجة بابها. وجه زاهر، وكمال باهر، ذهل منهما عقله وطار لبّه، ووقعت في نفسه الفتاة موقع الماء الزلال من ذي الغلة الصادي، فبات ليلته ساهرا مسهدا كأنما مسه الإثم بأنيابه.

ومنذ ذلك اليوم، كان كلما فاء الفيء، وانفرشت ظلال المغرب على الترباء يلحظها في المكان نفسه، كأنها ترقب مروره، ثم صارت تشفع لحاظها بابتسام لا تخطئه العين، فيعود وفي الصدر رفرفة كأن مهجته يقلبها بين الجوانح طائر، ويبيت في ليالي السهد يستحلي في ذهنه لحظات مستعادة، يرسم للغد دربا لا يزال في أوله.

كان حريصا ألا تبدر منه بادرة تسيء به الظن، وهو يرتب أمره ليخطو الخطوة التي يستكمل بها نصف دينه، ولكن ما أضمر المرء شيئا في نفسه إلا وشت به حركاته ونظراته، فسرعان ما فاحت حكايته، وإذا الناس في القرية يهمسون بما كان يظنه أمرا مخفيا، وإذا الهمس يسري كالأنسام في هذا الربع النائي المنفتح على الخلاء القفر، حتى غدا حديثا يروى في الحلقات والأسمار، ليبلغ من يهمه أمر الفتاة.

عندما أعد المؤدب الشاب عدته، استجمع أمره وذهب يطلب يدها، فإذا أبوها يلقاه برفض مؤدب ويقول له:

- لقد سرى في القرية كلام لم يخرج عن الظن والاحتمال، ولو زوجتك إياها فسأجعل الظن حقيقة، وأكون كمن سوّى أمرا كان مفعولا.

وزوّجها على عجلٍ لقريب ليقطع دابر الشك والهمس المريب، وانطوى الشاب على نفسه يلعق جرحه في صمت، لا يسرّ بما يكابد لأحد.

ومرت أعوام والشاب يعيش على ذكرى حبيب لم يظفر منه بغير بسمات، ونظرات عن بعد، لا يزال يحفظها بين الضلوع كما يُحفظ سر مكنون، وأصداء خفق يتزايد كلما مر قرب هاتيك الديار.

وفي يوم، بينما كان في الكُتاب يتلو مع الصبيان بعض آي الذكر الحكيم، لمح في قعر حذاء لأحد الأطفال ورقة. سحبها في غفلة منهم فإذا هي رسالة من حبيب المسعى الخائب، تنفخ تحت رماد السنين جذوة توقد الذكرى وتعيد إلى نفسه رنين ذلك الخفق

الجميل. كان الطفل ثمرة ذلك الزواج القسري، لم تجد أمه من حيلة في فضاء لا يخفى عن الناس فيه حتى الدبيب على الثرى، سوى أن تبث حبيب القلب لواعجها المخبوءة في وريقات تودِعها في حذاء الصبيّ، دون أن يدري.

وصار ذلك الحذاء مكمن الأشواق والشكوى، يحمل كل يوم بين الغدوّ والرواح رسائل متبادلة، لا يعلم طرفاها أيان منتهاها.

وفي يوم، انقطع الوصل فجأة.

لم يأت الصبيّ لا في ذلك اليوم ولا في الأيام التي تلته، وأيقن المؤدب أن أمرهما افتضح، وبات لياليه يجفو جنبه عن موضعه كأنما يتقلب على الجمر، لا يعلم ما يفعل، ولا يدري كيف يواجه زوجها لو جاء يبغي انتقاما للشرف المهدَر. وظل أيامه ولياليه على خوف وقلق وحيرة، والزوج لا يأتي، والصبي لا يعود، والضيق في صدره يشتد ولا يدري كيف يطفئه.

ثم اعتصره الضمور، وساءت صحته، وانتقض أمره، وأغلق كتّابه، وصار لا يرى في مسارب القرية إلا أشعث أغبر حتى ظن الناس به العلة.

كان يبدو لمن يراه أن مسّا طارئا ذهب بعازب عقله، وهو لا يني يطوف بالأرجاء ذاهلا ساهما يبحث عن شيء لا يعرف أحد ما هو، مثل ساعٍ تاهت به المسالك، وينشد، وهو الذي لم يعهد منه الناس غير تلاوة القرآن :

تَزوّد كلُّ الناسِ زادًا يَقيهِمُ ‏ ‏ ‏ ‏ وما لِيَ زادٌ والسلامُ على نفسي

وظل على تلك الحال أياما حتى يئس من سلامته الناس، واعتادوا على جنونه.

وفي صبيحة يوم خريفي حزين، أفاق الناس على حركة غير معهودة شملت القرية. كان أبو تلك المرأة وزوجها وأهلها والجيران يقلّبون الأماكن والمنعرجات والوهاد، وكلّ ما يمكن أن يقي الستر بحثا عنها.

ثم انتبهوا فجأة إلى اختفاء المؤدب المجنون، فراحوا يفتشون عنه في الكُتّاب الموصد، وفي بيته، وفي أرجاء القرية، فلم يقفوا له على أثر.

عندئذ أدركوا أن الحبيبين احتجبا تحت جنح الظلام، وفرّا إلى وجهة غير معلومة، لا يعرف موقعها إلا الله.

فأما الزوج، فقد كتم غيظه، وحمل ابنه وغادر القرية نهائيا.

وأما الأب فقد داخَل عقلَه خبل وهو لا يني يتمتم : " ما شاء الله كان."

وأما القرية، فما زالت حتى يومنا هذا، تروي حكاية حب غامضة، بين إحدى بناتها ومؤدب شاب غريب.

ـــ حكاية خادم الملك ـــ

زعموا، والله أعلم، أن ملكا بسط سلطانه على بلاد فسيحة المطارح، كثيرة الخير والنماء، وانقادت له الرعية طوعا لعدله وإحسانه وترفّعه عن ارتكاب المعاصي، وعاشت البلاد في ظله عهدا من الاستقرار والدعة، ولكنه لم يُرزق بمن يخلفه ويحفظ ذكره وسلطانه. ومرّت به الأعوام حتى انقطع الرجاء، وخشي أن يقضي نحبه فينتقض الملك من بعده، وداخله من ذلك همّ مضنٍ، حتى حال لونه وصار لا يأنس إلى أهل ولا صِحاب.

وكان له خادم مطيع يدعى زهران، أنس إليه، فأطلعه مرة على خبيئة نفسه، وهو في حال من الغمّ احتوشت نفسه، فقال له الخادم:
- لقد كان ما كان يا مولاي، ولم يبق إلا النظر فيما يكون.

وبعد أيام، جاء زهران يعلمه بأن زوجه حامل، وأنه اتفق معها على أن يهبا الملك طفلهما سرّا إن كان المولود ذكرا.

ووقف الملك مبهوتا وقد استغلق عليه التفكير والقول فلم يجب بكلمة، ومن الغد أذن ببناء جناح في القصر لا يدخله أحد ما عدا زوجته وقلة قليلة من الخدم الأوفياء، وأمر زهران بأن يجيء بزوجه الحامل لتقيم في ذلك الجناح حتى أوان الولادة، ثم أشاع في

البلاد كلها أن الله استجاب لدعائه، وسوف يرزقه بغلام.

ومرت الأيام والبلاد في ترقب ودعاء وضراعة ورجاء، ولا حديث للناس إلا عن رحمة الله التي وسعت ملكهم العادل بعد ضنّ. ثم وضعت زوجة زهران غلاما بهيّ القسمات، فأذن الملك بإقامة الأفراح والليالي الملاح احتفاء بمقدم وليّ عهده، فاستبشرت به الرعية وضجت في أفراح آخذ بعضها برقاب بعض.

وفي يوم نادى الملك خادمه وأغدق عليه العطاء ثم قال له:
- يا زهران. خذ زوجتك واغرب عن هذه البلاد وإياك أن تفشي سري، فإن فعلتَ أكون قد سَلَلْتُ نفسي من جريرتك، وبرئتُ من دمك.

ومضى المسكين إلى بلاد بعيدة، هو وزوجته، ينعمان بتلك الخيرات التي وهبها الملك إياهما، ولكن زهران وزوجته كانا يتجرعان مع كل شربة غصصا وهما يتسقطان الأخبار من الرحالة والتجار عن أحوال تلك البلاد التي هجراها، ويسألان عن الأمير الذي تركاه في المهد.

ومر عام وراء عام، وماتت زوجة زهران كمدا وحسرة على تفريطها في فلذة كبدها، ثم جاءت الأخبار تحمل إلى زهران نبأ وفاة الملك واعتلاء وريثه سدة الحكم.

عندئذ قرّ منه العزم على العودة إلى بلده، ليرى ولده وقد صار ملكا تدين له الرقاب، فقدم إلى تلك المدينة واتخذ له بيتا قريبا من القصر، كان يطالع من نوافذه طيف ابنه إذا خطر على الشرفات والأسوار.

وفي يوم تسلل مع من جاؤوا يبايعون الملك الشاب، ويقدمون له الولاء والطاعة، فاعترته لمرأى ابنه قبضة لم يتمالك منها نفسه، ووقف ينظر إلى ابنه شاخصا مشدوها، يكاد لا ينطق بلفظ. رآه متين العود ليس في لحمه فضلة من شحم تدوّر ملامحه، وبدت تقاطيع وجهه صارمة قوية، تجمعت حول فم منقبض تكاد شفتاه لا تنفرجان، وهو في حلة من الديباج مرصعة بجواهر يخلب ومضها الأبصار.

يومئذ دنا زهران من رئيس الخدم ونفحه مبلغا من المال، كي يستبقيه في القصر خادما من خدمه وعونا من أعوانه. وأغرى المال رئيس الخدم فاستدناه، وبذلك صار زهران قريبا من ابنه يراه ويلحظه كل يوم، يلتمس في رؤيته التفريج عن قلبه المكروب، ويمنّي النفس بضمه وتقبيله. كان إذا رآه، يشخص إليه ببصره حينا لا يطرف ولا يتحرك، ويعصر قلبه عصرا قاسيا وهو ينوء بسرّ مخبوء في قرار مكين.

وفي مرة، بينما كانت الملكة تطوف في حديقة القصر صحبة جواريها، لمحت زهران فعرفته. انقبض قلبها لمرآه، وباتت ليلتها تلتج في صدرها المخاوف والظنون التجاجا لا يهدأ ولا يتوقف، والوساوس تهزها وتضنيها، ومازجها شعور بأن عودة زهران سيرافقها زوال النعمة وحياة الملك، فدبرت له حيلة قبل أن يفتضح السر وتأتيها الأيام بما تكره.

ومن الغد، افتقد الملك الشاب جوهرة نادرة فثار ثائره وغلى من السخط دمه حتى ضجّ به منخراه وتطاير الغضب من عينيه، فإذا هو في حال من الحنق يكاد لا يرى ما أمامه، يقسم على ضرب أعناق

كل من في القصر إن لم تظهر الجوهرة.

وشمل الخدمَ والحشمَ والحرسَ هلعٌ شديد، فجدّوا في البحث عن الجوهرة المفقودة ، ولما باء سعيهم بالإخفاق، وخشوا أن يبرّ الملك بيمينه وينفذ وعيده فيرديهم بلا رحمة عن إثم لم يقترفوه، تآمروا على زهران وهو بينهم غريب، والغريب مدعاة للريبة، وساقوه إلى الملك في غلظة وتعنيف، والمسكين يصرخ بالبراءة، وشعور القهر يثور بأنفاسه.

كان الملك الشاب واقفا يتنقل في حركات متشنجة، تشي بالغضب الذي ضرب على عقله وألهب صدره، يتردد متجها إلى جهة، ثم يرتد عائدا إلى أخرى، حين وقع نظره على رجاله قادمين يجرون صاحب الفعلة الشنعاء، فاتجه إلى عرشه واسترخى باسطا ذراعيه، وتقبضت عضلات وجهه وهو يصيح في الرجل:

- كيف تخون الأمانة أيها الغريب وقد آويناك وأطعمناك ؟

نظر زهران إلى ابنه لحظة وهو حائر، وقد تمزق من الشدّ والجذب رداؤه، والتجم عن الكلام برهة حتى خُيِّل لمن رآه أنه فقدَ من الرعب لسانه، وبدا كأنه يريد أن يقول قولا ولا يجرؤ عليه. ثم نظر إلى من حوله في اضطراب وقال بصوت مختنق:

- لو كنتُ كذلك لما جعلني أبوك في مَنَعةٍ منه، يأتمنني حتى على أسراره.

سأله الملك وقد بدت علائم الاستغراب في نبرته :

- أنتَ تعرف أبي ؟

- نعم، وأعرف هذا القصر بأركانه وزواياه.

- ولماذا هجرته ؟

تردد زهران قبل أن يقول :

- كانت تلك إرادةَ أبيك برّد الله ثراه.

ولمس الملك الشاب في كلام ذلك الشيخ وملامحه ما يربأ به عن الأعمال الدنيئة، فأرجأ البتّ في أمره حتى يعمل رأيه ويشاور حاشيته.

في تلك الليلة تسللت الملكة إلى السجن وذهبت إلى زهران تسأله :

- لماذا عدت ؟

- لأرى ولدي.

- خذ ما تشاء وامحُ هذه الفكرة من ذهنك.

- لا داعيَ يا مولاتي، فلن أعيشَ أكثر من غد أو بعده، وقد ألصِقت بي تهمة ليس من جرائرها مفرّ.

- وإن أنقذتُ حياتك، فهل تقبل بأن تختفي تماما ولن نسمع عن ذكرك أبدا ؟

- يا مولاتي. هذا سرّ لا يعرفه إلا أنا وأنتِ، ولن يصدقَني لو جهرتُ به أحد. فممّ تخافين ؟

- ماذا تريد إذن ؟

- ليس لي من رغبة أحبّ إلى نفسي من رؤية ولدي، أريد أن أبصره حتى عن بعد إلى أن يتوفاني الله.

عندما أدركت صدق كلامه، ندمت على ما بدر منها، وذهبت منذ الصباح الباكر إلى ابنها تلتمس تهدئته، لعلها تسلّ من صدره تلك الموجدة، وتعلمه أنها عثرت على الجوهرة التي كانت قد وقعت منه، حين عادها في غرفتها، وقالت له:

- الحمد لله الذي جعلك تتريث في حكمك، وإلا لكنت قتلت نفسا بغير ذنب.

- لقد قرأت الصدق في نظراته، ولمست فيها شيئا أليفا، كأنها تذكرني بشخص عزيز لا أدري من هو.

طوقته أمه بذراعيها وقالت بصوت خافت فيه رنة الحزن :

- كم من أشياء يا ابني، لو قلّبناها لوجدناها على غير ما تبدو في الظاهر.

وأفرج الملك عن زهران وأحسن إليه وكرّمه، ثم قرّبه، وجعله خادمه المطيع. وعاش زهران كما كان في عهد الملك السابق، دون أن يعلم الملك الشاب أن ذلك الخادم أبوه.

ـــ حكاية الولية الصالحة ـــ

زعمـوا، والله أعلـم، أن صـديقين كانـا متلازميـن منـذ نعومـة الأظفار، لا يفترقان إلا لحاجة أو ضرورة.

كان أحدهما، واسمه جابر، يبدو لمن ينظر إليه قويا تتألق على وجهه الأسمر ملاحة الشباب، وهو يسير بأنف أشم وهامة مرفوعة، تتقد نظراته ببريق فيه، قسوة وفيه رغبة في الإطاحة بكل من يواجهه.

وكان الثاني، واسمه عامر، لا يقل عن صديقه قوة ورغبة في البطش، ولا يختلف عنه إلا في الوجه المستطيل الذي لا يبدو فيه أثر لشحم، حيث عينان تومضان باحمرار، وشارب مفتول الطرفين، وأنف أقنى.

نشأ الصديقان في يتم وفقر وخصاصة، ولّدت في نفسيهما نقمة تموج في الصدر، وتصخب في العيون، وتتبدى في عمليات نهب وقطع طريق يصيدان من خلالها رزقهما بالمنكر والعدوان، ثم يلوذان إلى مخبئهما بأحد الكهوف التي لا يستدل إليها ساعٍ حتى شاعت أخبارهما،كما يشيع الظلام في الوديان المقفرة، وملأت قلوب الناس هيبة تنعقد لها الألسن عند ذكر اسميهما، ولم يعد أحد يجرؤ على أن يملأ منهما عينيه، حينما ينبجسان من الظلام مثل

وحشين ضاريين، أو يطلعان من دغل المسارب في سطوة طاحنة، خوفا من أن تبدر منهما بادرة أشد قسوة.

وكان الناس إذا اجتمعوا بليل، يغلون سخطا تفور منه الأنفاس، مثل قدر اضطرمت تحتها النيران، ولكن الخشية من بطش الصديقين الفائرين تظل تخفي ذلك السخط الذي تغلي به الصدور تحت ستار من إيثار السلامة وغضّ النظر.

وظل جابر وعامر على تلك الحال، يغيران على البيوت والقوافل في وثبة رجل واحد، وينظران إلى الأمور برؤية واحدة كأنهما توأمان، ويقتسمان الغنائم بالتساوي، ويحمي أحدهما ظهر الآخر.

وفي مرة اعترضا سبيل هودج يحمل عروسا، يقودها أهلها لتُـزَفّ إلى زوجها. عندما رآهما الناس، وكانوا يضربون الطبل وينفخون في المزامير ويشدون بالأهازيج، تشتتوا في ذعر وولوا هاربين، تاركين الهودج بعروسه نهبا للصعلوكين.

أناخا الناقة عند فم كهف في أسفل وادٍ ضيّق، تنحدر جوانبه في مسلك وعر تكسوه شجيرات وأعشاب بارضة، رفعا سجفَ الهودج، وكشفا النقاب عن العروس، فإذا فتاة في شرخ الشباب ليس كحسنها حسنٌ، صباحة في الوجه، وضاءة في البشرة، ملاحة في الفم، جمال في الأنف، حلاوة في العينين. ما إن رآها الصديقان حتى غشيهما ذهول كذهول الحلم واستولى على قلبيهما شيء لا يجدان له تفسيرا، شيء نفرت له العروق وانقطعت الأنفاس وانعقد الصوت في الحلق وعلا النبض بخفق متدارك.

قاداها إلى الكهف وهما يتمليان قدها الرشيق وقد زادتها

حلتها وحليها إشراقا ورونقا وبهاء، في صمت لا تسمع فيه نأمة. أجلساها على دكة عليها فرش وطنافس، وبسطت رجليها الناعمتين على زرابي مبثوثة، وقد عقد الخوف لسانها، تنمّ نظراتها عن رغبة في أن تقول قولاً فلا تقدر.

وداخل الصديقين من ذلك لاعجٌ، حاولا تخفيف حدته بفكاهات عابرة، تساق في الظاهر للتندر دون أن يُطلع أحدُهما صديقهَ على خبيئة نفسه، كأنه ينتظر الغِرّةَ الملائمة ليفصحَ عن أمر لم يدخل من قبل قلبه، فأقبلا على الخمر يستنبتان منها جرأة، ولا يزالان يملآن منها الكؤوس كأسا بعد كأس، وكلما شربا منها اشتدّ بهما الظمأ وراما المزيد، حتى هبط الليل.

عندئذ طلب جابر من صديقه أن يخرج بحثا عن عشاء يصيبونه جميعا، وكان قد أضمر في نفسه أمرا. وما كاد عامر يغادر الكهف مستترا بجنح الظلام حتى نهض جابر إلى الفتاة، فارتاعت وانكمشت، وإذا هو يكتم براحته صرخة كادت تند عنها، ويقول لها بصوت خافت :

- لا تراعي. لن يمسّك أحد بسوء، وإنما أردت أن أسألك هل ترضين بي زوجا، فأتوب على يديك من حياة الإثم والعدوان ؟

ترددت الفتاة قبل أن تقول وشفتاها الرقيقتان تختلجان:

- وصاحبك ؟

- ما به ؟

- لقد قرأت الرغبة نفسها في عينيه.

ولمس جابر في جوابها استجابة، فأشرق وجهه وأطلق ضحكة حانقة، كأن الشجون التي تجيش في صدره كانت تلتمس منفذا

في تلك الضحكة، وأردف وهو يصر قبضته بقسوة:

- هوّني على نفسك. ما أنت منذ اللحظة إلا مني، وما أنا إلا منك، ولن يصيبَك مكروه ما دمت حيّا.

ثم خرج ولبد في ناحية عند باب الكهف تلتم عليها أغصان الشجر، وما هي إلا ساعة حتى عاد عامر مسرعا يثير أمامه نثارا من الحصى المتطاير، وما كاد يبلغ مدخل الكهف حتى أحس بطعنة خنجر تنفذ بين ألواح الكتف، أطلق صرخة عالية تردد صداها في الخلاء، وانكفأ إثرها على وجهه يفحص الأرض برجليه كالشاة الذبيحة، قبل أن يلفظ أنفاسه.

جمع جابر قراطيس الأكل التي عاد بها صاحبه، ودخل على الفتاة مزهوّا بإزاحة خصم قد ينازعه في امتلاك قلبها، فإذا بها مضطجعة على الدكة تتصنع النوم.

نظر إليها، وسكينة على غير عهده من نفسه تملأ صدره، وقال كأنه يحدث نفسه:

- نامي، فلن ينافسَني فيك بعد اليوم أحد.

وأقبل على الأكل في شراهة المحروم، يشبع بطنا ألهبه الجوع، فإذا بآلام حادة تمزق أحشاءه، وإذا هو قائم يخبط وينزع ويحطم الأشياء حوله، يصرخ صرخات وجع جشاء متقطعة، ويداه على بطنه، وعيناه على الفتاة التي بدت له في تلك اللحظة مثل سراب خادع لا تني صورتها تتناءى حتى اختفت تماما، فخرّ جابر على قفاه، فاردا يديه ورجليه، وعيناه شاخصتان كعيني سمكة ميتة، وعلى فمه المفغور رغوة كالصابون.

كان عامر قد أضمر لصديقه الشيء نفسه طمعا في الفتاة.

حوّلت الفتاة نظرها عن الهالك وهي تنهض لتغادر الكهف، ثم تخطت الجثة الثانية، ومضت تضرب في الأرض بحثا عن مضارب أهلها أو زوجها، وابتلعها الظلام.

وراجت بعد ذلك أخبار تناقلها الناس في الغدايا والعشايا والأسمار عن المرأة التي قهرت جابر وعامر، حتى قالوا إنها من ولايا الله أرسلها إلى ذينك الشريرين اللذين طغيا في البلاد وأذلاّ العباد. ولما ماتت أقيم لها ضريح صار مزارا يأتيه الناس من كل أوب، يرفعون لتلك الولية الصالحة النذور ويرجون منها البركة.

[حقيبة خامسة]

عندما عاد إلى تربته الأولى بعد غياب جاوز الأربعين عاما، لم يفهم ما الذي تغير. الحقول هي هي، والأشجار كما تركها، وبيوت الطين كعهده بها أيام زمان، حتى المواشي لم تبرح هزالها المعتاد، ولكنّ إحساسا غريبا بأن ما تراه عيناه غير ما اختزنته الذاكرة ظل ينغل منه الجوارح.

الوجوه فقط تغيرت. شبّ من كان في المهد، أو من كان يلهو حافيا وسط الحقول، يصنع نواعير الكشبور، وينصب الفخاخ للعصافير والأرانب واليرابيع، وشابَ من تركه في عنفوانه، فإذا هو مَحْنيّ الهامة، مقوّس الظهر، مكمّش الوجه، مخشوشب الأصابع، أدرد أبْخَر، إذا تكلّم تناثر من فمه البصاق والروائح الكريهة، وإذا مشى كان كمن يسوق بنفسه إلى جبّانة غاب تحت لحودها من غاب.

كلّ ذلك توقّع حدوثه وهو يرى في كلّ صبحٍ تجاعيد الزمن الزاحفة على ملامحه، ولكن المكان الماثل أمامه، ببيوته الطينية البائسة، وجنائنه التي تسيّجها طوابي الهندي[11]، وحقوله المتشحة باخضرار له أكثر من صبغة، حقول تنحدر في اعوجاج ونتوء حتى

11 التين الشوكي .

وادي ملاّ حيث شجيرات الدفلى والعوسج والطرفاء وأشجار الزعرور والنبق والخرّوب، لم يطرأ عليه في الظاهر أيّ تغيير. وكان يحس رغم ذلك، إحساسا ناجما عن قناعة غامضة، بأن شيئاً ذا بالٍ تغير.

مازجه شعور بأنه اثنين : صبيّ يدرج في الحقول والجنائن والمسارب، يسرّح خطوه في الدروب كما يهوى، غير عابئ بريح ولا بمطر. وكهل جاوز الخمسين بقليل، بينه وبين العالم نظارة، ثقلت حركته، ونسل شعره، ولم تعد ضروسه تقوى على قضم تفاحة، ولا استطعام ما تطحن.

كان يبدو لمن ينظر إليه غريبا، كأن لم يكن له في هذه التربة جذور، وفي مساربها الغبراء آثار قدميه الصغيرتين اللتين يبّسهما الحفاء، وفي تِلاعها الشجراء المنسابة إلى بطن الوادي صوت نغيه، وهو يردد في غدوه ورواحه ما حفظه من كتاب الله. في كتُّاب الشيخ بوجمعة المؤدب الذي فتح بصيرته على الكلم المجيد والخلُق الكريم والخط الرفيع.

صور من حياته مرّت به سِراعا، فتّش خلالها عن نفسه، فإذا هو كالروح الهائمة في كل مكان، غريب حيثما حلّ، يرنو إلى الأشياء كما يرنو العائد بعد غياب طويل إلى رسم طامِس.

غريب حتى بأرضه وأرض أجداده.

غريب وهو ينقّل خطوه القصير الواهن وسط بساتين ملتفة الشجر، يتموّج حولها الزرع السامق، وتتلامس أغصانها كلما هبّت عليها نفحة من النسيم الفاتر، وعبسة عميقة تعقد ما بين حاجبيه،

كأن جبينه الواسع لم ينفرج يوما عن بسمة.

كان يحس في قلبه حزنا كامنا لا يعرف مبعثه، وكان يطمع لو استطاع أن يجد في هذا الجمال الذي يحيط به، وهذه السكينة التي ترين على الهضاب والسهول والمرتفعات، ذلك السلام الذي أعجزه في غيهب المنافي.

لكأنه جاء يبحث في ماضيه عن نفسه، فلم يجدها فيه.

فتّش عنها في روائح الحقول ونفحات النسيم وأحراء الشجر وهسهسة الغيث وشدو القَطا والقبُّرِ والضرّيس، وفي عيون الناس الذين يعرف ولا يعرفون أن له بهم روابطَ لا تخفى، فما عثر فيها على شيء مما يرجو. كانوا إذا رأوه تيامنوا عنه أو تياسروا وهم يحيّونه بهزّة رأس من بعيد تحية عابر سبيل كما هي العادة في الأرياف.

حتى صَحْبُه الأوفياءُ وآلُه الأقربون ممن فتحوا له، مع أبواب بيوتهم، صدورا رحبة تحتفي بالعائد العزيز، لم يلمس في نظراتهم، رغم المحبة الصادقة، والشوق البالغ، والكرم الذي جاوز الحدّ، أثرا يستهدي به لتلمّسِ طريق إلى ضالته المنشودة.

كان كالعائد على أعقابه يقفو في مسارب متربة آثار خطى بددها الزمن وسعي الأقدام والحوافر وشوادن الطبيعة. حتى لدَاتُه ممّن جمعه بهم عبر الدروب لهو وعبث، لم يجد في حكاياتهم عن الماضي البعيد ما يجعله يأنس إلى ماضيه، ويُمسك في تلافيفه خيطا يهديه إلى نفسه. كان يحس أن بينه وبينهم فجوة، كالهوّة، ما عاد يجد لردمها سبيلا، ولو نذر لذلك بقية عمره.

وتمثلت أمام عينيه، وهو يغادر مراتع الطفولة والصبا التي كان يحجل فيها ويَردي، ويصيد ويعثو، ويرسم ويحلم، صور الأيام المقبلة حينما يخلو في المدينة إلى نفسه، فيمتلئ صدره بما يزيد نفسه القلقة ضراما واختلاجا، وقد جاء يحيي جذوة خال أنها لم تنطفئ، فإذا هي رماد منثور في فجاج الزمن.

ــــ آخر المطاف ــــ

1 - عودة

عندما وطئت رجلاه مطار تونس قرطاج، بعد غياب دام فوق ما يلزم، أجال طرْفه يستكشف الأمكنة والأزمنة والناس، وأدرك أنّ ما مضى من عمره في الغربة كثير.

قبل قليل، والطائرة تمخر طبقات الجوّ، تساءل بأيّ وجه سوف تلقاه المدينة التي غادرها في ليل سُخام، كالمطارد، طمعا في عيش أرحم وأفق أرحب وأرض لا تضنّ على زوّارها بالأمان.

لم يودّعه ليلتها أحد ولم يعلم برحيله أحد. كذلك شاء، كما شاء لهذه العودة أن تكون. تطلّع في الناس بعيون فيها شوق وحنين، وفيها توق إلى ربط ما انفصم، يفتّش عن نظرة يريح عليها نظراته ولكنّه كان كمن يريد أن يُحْيِيَ جمرا رُدِم بكوم من تراب.

لم يستوقفه عند اجتيازه البهو أحد، ولم يعره أحد لفتة وهو يخترق الزحمة لا رديف له غير حقائب الترحال.

2 - صمت دامس

عندما ضغط الجرس لم يسمع رنينا. وقبل أن يطرق الباب، داخله شعورُ من يقتحم على الناس خلوتهم في وقت حرج على غير انتظار. الوقت ليل، والحركة هاجدة، والناس نيام، والظلام شامل

عدا أضواء وانية نضحت بها النوافذ والأبواب الموصدة.

وهو يصعد السلّم، سأل نفسه مرة، وربّما أكثر، عمّن سيعرفه. الكبار تفرقوا أشتاتا، والصغار جاؤوا كلهم بعده، والشيخ رحل إلى دار لا ترتجى منها أوبة، والعجوز أوهاها العمر والتهمام والنحيب، وما عادت تعي سوى ما تعيه العجائز في غروب العمر.

ألمّ به التساؤل من جديد وهو ينقر الباب في خفوت كالمتردّد.

بدت في فرجة الباب الموارب تقيس الطارق من أسفل إلى أعلى في دهش يخالطه انزعاج، وجرت عيناها على حقيبته الفاخرة، ولباسه الأنيق، ومعطفه الوبريّ الداكن الذي لا يلائم هذا الطقس الخريفي اللطيف، ثم انحطتّا عليه في سؤال حذر صامت. وضيئة الوجه، معقوصة الشعر، عسليّة العينين، في مثل طوله تقريبا، وفي سنّ يداني أعوام غربته بقليل.

سأل كالمعتذر:

- أنت ليليا، أليس كذلك ؟

حرّكت رأسها في ابتسام مقتضب، وأشارت بسبّابتها إلى الطابق العلوي، وأطبقت الباب، فشمله صمت دامس.

3 - **وكر**

رنا إلى المدينة كما يرنو العائد إلى طلل قديم، ونقّل في الأرجاء خطوَه مؤتزرا هَبو النسيم ولجّة الصخب.

أين الرفاق وأين اليوم مجلسهم.

هنا كان يلقاهم في عشايا اللهو والجدل العقيم، يقيمون في

الشـرقين مملكـة لا تـبرح أن تهـوي إلـى حُطـام، قبـل أن يبلـغ العشـيّ مداه. هنا كان الرفاق يصهرون الشعر شـرابا للظمأى، ويوقدون من ضلوعهم قناديل للفرح القادم.

هنـا، حيـث الآن بنْـك تبسـط فروعـه أذرعهـا علـى المدينـة، كعلامة من علامات الساعة.

4 - **مدن**

أمل الغريب أن يرى حماه.

وذا حمـاه اليـوم علـى مرمـى البصـر. فضـاء يعـبره الضـوء بلا رقيب، نور ساطع ينشر الدفء على الأحياء والأشياء ، أصوات يتردد صداها في عالم منفتح على الأزل. هنا السماء أليفة، والديار أليفة ووجوه الناس، وإن مرّت به في صمت، أليفة. كل ما في المدينة يلقاه بترحـاب تخطئه العيـن وتعيـه الـروح. ذي طيـور بـاب البحـر تجـدل الأشواق في شجر الحَوْر، وذي تخوت المقاهي العتيقة بباب الجديد وباب المنارة، لا تكلّ ولا تملّ أغاني الوجد والعشق القديم، وذي زاوية سيدي محرز خفقة بين السّرى والأدعية.

خطر بباله وهو يجوب الأرصفة التي حضنت خطاه، أنّ المدائن نسوة ملفّعات بالأحاجي والأسرار، وإذا مدن الترحال لها أوجه ماثلة على مرمى البصر : باريس غانية خالعة العِذار، ولندن قهرمانة عجوز بدار بوار، وروما فاتنة على ضفاف المتوسط تكاد لا تستر عريها عـن العاشـقين، ودمشـق غـادة أمويّـة تـروز الأفـق مـن خلـف أهـداب حوالـك، وبغـداد عاشـقة حالمـة تضـفر علـى عـدوةِ دجلـة جـدائلها الطويلة... ولتونس في ذهنه وجهُ أمّه.

ـــــليلة الحِلّ ـــــ

1 - فراغ

عندما وضع حقيبته واسترخى، داخله شعور بأنه بلغ برّ الأمان.

لم يكن في البيت غير أمّه العجوز، ولكنه أحس إحساسا عميقا بأن أهله وناسه كلهم هنا، في هذا البيت الذي شهد حركة يكاد يُستتجَد لها بشرطي مرور لتنظيمها، خصوصا في المناسبات، حين يلتئم الشمل ويجيء الإخوة والأخوات بصغارهم، فتعمّ هوشة أشبه برحبة أغنام عشية العيد، أو حينما يجيئون لاستقبال الإخوة الكبار، العائدين من فرنسا، بهدايا تكاد تنشب لاقتسامها معركة .

كان قد جاءها بفستان وشال وطماق وشاي وبندق وشيء من الشكلاطة ، فإذا هي كالضرس الذي أزيل عنه العصب لا يدري ما الذي يطحنه .

2- د فء

عندما رآها بكى.

بكى على نفسه، على عمر تسرب في البحث عن المستحيل بين ضفتي المتوسط. فتش في وجهها عن شبابه وأدرك أن ما انقضى من عمره كثير. جسد رخو اعتصره الضمور، عينان غائرتان خلف نظارة سميكة، وجه مكمّش غزته الغضون من كل جانب،

خدّان تبرز فيهما عظام الوجنتين بنتوء لافت، جبين ضيق معصوب بمحرمة مزوقة فوقها زنار مزركش، كان فيما مضى مشرقا مثل سماء صافية .

اضطجع على ركبتيها الناحلتين فراحت تفلي ما تبقى من لمة رأسه بيدين معروقتين، يلوح على معصميهما وشمٌ حال لونه، وتحدّثه كعهدها من زمن قديم.

3- **عادة**

عندما تساءل أيّ ملاذ يقيه البرد والخوف وألواء الغربة، لم يبد له آمن من صدر أمه. رحيب يتسع لدستة من بنات وبنين، سخيّ أرضعهم جميعا لبن الأمومة الدافئ، حنون لو جاء الموت يسألها أن تتنازل له عن واحد منهم لوهبت نفسها فداه. لم تتخط باب البيت إلا مرات تعدّ على أصابع اليد الواحدة، لم يكن يشغلها من أمور الحياة غير أبنائها، أعطتهم كل ما تقدر عليه، ولم تجد منهم في خريف العمر إلا زيارات متباعدة، لا يذكرونها إلا إذا ألمت بهم مصيبة، يأتونها كما تزار ولية صالحة، للتذمر والشكوى والطمع في دعوات صالحات.

قبل أن ينام، رآها تدخل يدها الناحلة في عبّها، وتسحب ورقة مالية مطوية على أربع. عشرة دنانير.

قالت :

- خذها لتركب وتشرب قهوة مع أصحابك حتى تصرّف فلوس فرنسا.

4- **كنبة**

بدا البيت، في غياب من كانوا يملؤونه، واسع الأرجاء، كثير الغرف. تردد قبل أن يختار النوم في الصالة المربعة، قبالة مكتبة عليها بضع كتب مسفرّة، وتحف رخيصة وأكواب، ويتصدر كوّة بوسطها تلفزيون. أن ينام السويعات القليلة التي تفصله عن الفجر على الكنبة التي كان والده رحمة الله. عليه يضطجع فوقها، قريبا من الباب، كأنه كتب على نفسه حراسة البيت من أي دخيل. كنبة تعلوها لوحة بها آيات الكرسي بخط الثلثِ الجليّ تزين الجدار منذ أكثر من عشرين عاما، وهي التي لزمها حتى أقعده المرض وشلّ حركته، ولم يغادرها إلا محمولا على النعش.

عندما استلقى على تلك الكنبة تذكر والده وراوده هاجس الموت وأحس أنه مثل والده، لجأ إليها دون سواها حتى يكون قريبا من باب الخروج، الخروج من هذا العالم السفلي.

5- **موعد**

عندما انتفض من النوم فجأة كالملدوغ وأشعة الشمس تتسلل عبر شقوق نافذة الصالة، وأصداء ترتيل وأغانٍ تزفها البيوت المجاورة، لم يفهم ماذا جرى. أحس أن شيئا تكسر بغتة على رأسه، وتناثر شظايا، وما كاد يضع رجلا على البلاطة حتى وخزه شيء حاد، وإذا الغرفة كلها حين أحدّ نظره، قطع من زجاج مهشم بأحجام متفاوتة، وإذا الدم يسيل من رأسه، ونثار قزاز مثل برادة الحديد على فروة شعره، ولوحة آيات الكرسي مبسوطة عند قدميه، لم يمسس إطارها الخشبي المزوّق سوء.

تساءل وهو يكنس هشيم الزجاج عما حدا بتلك اللوحة أن تسقط وهي التي لم تتزحزح منذ سنين، وما الذي دفعه إلى النوم

على تلك الكنبة بالذات، وفي البيت أسرّة عديدة فارغة، فمازجه شعور بأنه كان على موعد غريب مع تلك الآيات التي ظلت تنتظر عودته، لتعلمه بأمر لم يفقه حتى الساعة معناه.

عندما ذهب إلى غرفة الحمّام يزيل ما علق بشعره، ويكمّد جرحه، كان قد قرر ألا يكشف عما حدث لأحد، فلن يصدقه، ولو أقسم بأغلظ الأيمان، بشر.

ـــــ أول الخطو ـــــ

1- نهار أول بالمدرسة

هو لا يزال يذكر نهاره الأول بالمدرسة.

مدرسة ريفية محاذية للطريق المؤدية إلى بلدة غار الدماء، تعرف باسم المحطة التي كان يتوقف فيها القطار **□ار موتيل**، تبعد عن مسقط رأسه بضعة كيلومترات وربما أقل.

نهار أول وأخير لم يدم أكثر من نصف ساعة. هو الوقت الذي استغرقه صبر معلمة فرنسية ناحلة ممتقعة سريعة الانفعال.

يومئذ كان مصحوبا بعمّه الذي يكبره بعامين، ثمرة زواج من امرأة خلَفت جدته، ولم يكن هو قد جاوز عامه الرابع حين قرر أبوه أن يلحقه بتلك المدرسة لينال حظا من العلم.

كان العمّ الصغير شكّاء بكّاء. منذ دخوله القسم، لم يتوقف لحظة عن إطلاق نحيب بصوت عال، اختلطت فيه دموعه بمخاطه، وكان عويله في ازدياد كلما دنت المعلمة لإسكاته.

وكان هو جالسا جنب عمّه يبكي لبكائه في صمت، لا يدري إن كان يذرف الدموع تضامنا أم خوفا أم عدوى، حتى عيل صبر المعلمة، فطردتهما من القسم نهائيا لكي تمنع عن نفسها التنغيص.

2- ارتحال أول

في عشية ذلك اليوم، في وقت بين العصر والمغرب، نزل الخبر على والده كالجمر الكاوي، فثار ثائره، وهو الذي أراد أن يخرج عن مألوف أهالي الجهة، الذين كانوا لا يرسلون إلى المدرسة إلا من فاض عن حاجة المزارع والمراعي والإسطبلات، فإذا ابنه يعصي أمره. استلّ حزامه الجلد العريض، يجلد ابنه بعنف جلدا مبرّحا، هرعت على إثره أمه تستصرخ والدتها لتقي الطفل سياط ذلك الأب الهائج.

هو يذكر كيف هبت جدته لنجدته، وحرامها البنفسجي يكنس البراح، وذراعاها الناحلتان مرفوعتان كأنها دجاجة تعوذ فراخها من عقاب، وكيف صاحت في وجه زوج ابنتها:

- هاه ! أبمثل هذا الحزام تضرب طفلا لا حول له ولا قوة ؟

- ابن الكلب يرفض أن يتعلّم! يريد أن يصبح خمّاسا أو راعي غنم وبقر!

وأقبلت عل الطفل تكفكف دمعه، والأب لا يهدأ ولا يتوقف حتى قالت له:

- إن كان هذا كل ما في الأمر، فسآخذه معي، وأتولى تربيته وتعليمه.

وكان أبوه في حال من الغضب والفورة الجامحة ملكت عليه صفاءه، فلم يلبث أن قال وسبابته مصوّبة كالأمر القاطع الذي لا يرتجى بعده ارتداد :

- خذيه ! لا حاجة لي به !

في مساء ذلك اليوم، كانت جدته تقطع معه وادي ملا على ظهر بغلة هرمة في اتجاه دوّارها عند هضبة بأعلى الوادي.

3- دروس أولى

في كتُاب ضامر البنيان، بائس الحصر، خامل الذكر، على مشارف دوّار شارن، كانت دروسه الأولى.

هناك تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، ولم يبلغ عامه الخامس، وفاق أقرانه حتى صار يشار إليه بالبنان، في الدوّار وفي مرابع أهله.

هو لا يزال يذكر يوم أعاده أبوه إلى النفيسية ليشهد المأتم الجنازي الذي أقامته العشيرة على روح عمّه الأوسط، وكان ضحية حادث مرور، ظلت فظاعته حديث الناس طوال أعوام.

ليلتها، والجو بارد، والقمر غارب، ورياح تصفر في الخلاء بلا انقطاع، أجلسه أبوه جنب شيوخ مقرئين، ببرانيس رثة، وعمائم خَلِقة، ووجوه ملتاحة كالحة، ليرتل معهم ما تيسر من كتاب الله. وكان هو يلمس في عيني أبيه وعلى قسمات وجهه علامات فرح لا تخفى، إذ رأى ابنه وسط المؤدبين مرتّلا بغير تعثر، تكاد تنسيه حزنه على فقد أخيه.

4- مكافأة أولى

عندما اقتنع أبوه بأن الكتُّاب لا يحقق لابنه على المدى البعيد ما يرجو له، صحِبه، وكان قد بلغ عامه السابع، إلى مدرسة بسوق الأربعاء، لا يدعوها الناس إلا منسوبة إلى مديرها "مدرسة سي

مصباح".

هناك أطلع المدير على أن صدر الطفل عامر بكلام الله، وشدّد على كونه يقرأ القرآن في المآتم مع المقرئين.

هو لا يزال يذكر علائم الانتشاء والزهو التي شملت والده، وهو يرى سي مصباح يخرج كتب القراءة المخصصة لتلاميذ الصف الأول، ثم كُتُبَ الصف الثاني فالصف الثالث، وابنه يلتهم الصفحات تباعا لا يتلعثم ولا يتهجّى.

عندئذ قال له سي مصباح وهو يربت على الطفل ويفيض عليه بالثناء :

- لو تعلّم الفرنسية لسجّلناه مباشرة في الصف الثالث.

عندما غادرا المدرسة، كان أبوه في فرحة متوهجة، فاتجه رأسا إلى دكان بسرّة المدينة، واشترى له دراجة حمراء ظلت رفيقته في غدوّه ورواحه بين الدوّار والمدرسة، حتى أزف أوان النّزوح إلى العاصمة.

1 - تذكّر

كلما استلقى في هجعة الليل ينشد راحة، تأوّبته وجوه وأطياف وأصداء، بعضها يعذّب منه العين بحضور حادّ ملموس، وبعضها الآخر يروح ويجيء كأشباح مخاتلة يكاد لا ينعم فيها النظر حتى تختفي.

لم يكن له من أيامه ولياليه غير التذكّر.

ثم صار يرهق فكره بِمقارنات عقيمة، بين وجوده في وطنه ووجوده خارجه.

لكم خال إنه واجد في العودة بردا وسلاما وسكينة تنسيه سنوات التيه عبر المدن الغريبة، والمنافي البعيدة والغربة القاسية، فإذا هو حرد قلق لا يهنأ بليلٍ ولا يأنس بنهار.

في البعد بدا له الرفاق أقرب، وكان عن بعد يلقاهم كلما أقبل على الورق يفشي له ما يجيش به صدره:

في هجعة الليل خلانٌ إذا ذُكِروا هاجتْ لذِكرهِمُ في القلب أشجانُ

وإذا هم قد تفرقوا أشتاتا، بعد أن هجروا مجالسهم القديمة، وأماسي اللغو والشعر والهذر الجميل، وإذا الوحدة هنا أيضا قاتلة،

وإذا هو لا يدري إلى أين يمضي، ولا يعرف ماذا يريد.

2- استراحة محارب

كانت أيامه ولياليه متشابهة مملّة، مسربلة بالقلق والحيرة. يكاد لا يسلم جسده إلى الفراش حتى تعتاده الذكرى.

وليلة، في وقت تعزّ فيه الحركة ويخلد الناس إلى النوم، راودته أمنية مجنونة. أن يكون حاضرا هنا وهناك في الآن نفسه، كما في الأساطير القديمة.

ودّ أن يحوز كليّانية الآلهة حتى يكون قادرا على العيش ما بين الضفتين، لعله يجد التوازن الذي فقده والطمأنينة التي قضى العمر في نشدانها.

كان يحس بداخله قوة غريبة تنخس جنبه وتذب النوم عن أهدابه وتدفعه إلى تحزيم أمره لرحلة قادمة. داخله شعور بأنه مثل محارب لم يعرف من الحياة سوى مناجزة الأعداء وخوض المعارك، يكاد لا يستريح لحظة حتى يعاوده الحنين إلى الوَطْن والجلاد.

3 - تساؤل

تساءل ما الذي كسب من ترحاله المستديم، وقد عاد خاوي الوفاض من تلك الأشياء التي اعتاد الرحالة والمهاجرون أن يملؤوا بها حقائبهم، وتساءل أيضا ما قيمة الحياة التي كان يحياها بعيدا عن أهله وناسه، غريبا عن وطن قال إنه يحمله بين الضلوع حيثما حلّ.

وفـي لحظـة، وقـد أرهقـه التسـاؤل حـتى أرّقـه، قـدّر أن لـذة الاكتشاف لا يعدلها مال.

لكـأن ارتحـاله لـم يكـن يومـا إلـى ضفاف أخَر، وإنمـا كـانت وجهته أعماق نفسه والوجود، مثل حكيم، أو زاهد أو متصوف، أفنى العمر يسعى لاستكمال الحكمة واستكناه الحقيقة .

4 - قدَر

عنـدما أفـاق مـن النـوم منتفضـا، والريـق ناشـف، والنبـض خـافق بقوة، والعرق متفصد على الجبين والرقبة، كان في حال أقرب إلى الشدَه. قلّب في أرجاء الغرفة طرْفه كأنه يكتشفها لأول مرة، وراوده إحساس غريب بأنه رأى فيما يرى النائم أطيافا خلف هاتيك الضفاف تدعوه.

جهد في تذكّر ملامحها ولم يفلح، حتى أيقن أنها إن هي إلا هواجسه التي لا تني تعتش في تلافيف ذهنه.

عنـدما قوّم جذعه ونهض، مـازجه إحسـاس حـادّ بـأنه كالسـهم المشدود إلى قوس موتور، ما عاد ينتظر غير الانطلاق نحو أفق لا يعلم ما وراءه.

في تلك اللحظة، خيّل إليه أنه كالسندباد.

يكاد لا يستريح من عناء رحلة ووعثاء سفر حتى يلمّ به الضجر من حياة الدعة والقعود، فيحزّم أمره ينشد في الارتحال سبيلا يحقق من خلاله ذاته، برغم المخاطر والأهوال.

كأنّ الارتحالَ قدَرٌ مرسوم له في الغيب من عهد قديم.

باريس 3.1.1998 / كراي (فرنسا) 5.12.2000

ـــــالفهرس ـــــ

* **أبوبكر العيادي** (49.3.6 بجندوبة)

كاتب تونسي مقيم بباريس منذ 1988 .

اشتغل بالتدريس والصحافة الأدبية والإنتاج الإذاعي.

<u>صدر له :</u>

- دهاليز الزمن الممتد (قصص) تونس 1986 .(جائزة مدينة تونس)
- أمراض الأدب القاتلة (دراسة) بغداد 1989 .
- حكايات آخر الليل (قصص) تونس 1992 .
- لابس الليل (رواية) تونس 2000.
- حكاية شعلة (قصص) تونس 2000.
- الضفة الأخرى (قصص) القاهرة 2001.
- مسارب التيه (رواية) تونس 2001.
- آخر الرعية (رواية) باريس 2002.
- الرجل العاري (رواية) تونس 2008.

كما نشر عشر قصص للأطفال وكتب سيناريوهات تلفزية ومسلسلات إذاعية.

<u>صدر له بالفرنسية :</u>

- La littérature de jeunesse en Tunisie, en collaboration, in « L'imaginaire du jeune Méditerranéen ». L'Harmattan, Paris 2002.
- Le rêve du sultan (contes arabes). L'Harmattan, Paris 2006.
- Le présage (contes arabes). L'Harmattan, Paris 2007.
- La monture du roi Grenouille (contes arabes). L'Harmattan, Paris 2007.
- Contes et légendes de Tunisie. Flies France, Paris 2008.
- Les aventures de Jeha, le malin aux mille ruses. Flies France, Paris 2010.

- Asfour le devin (roman). Seuil Jeunesse, Paris 2010.
- Le roi qui aimait les contes (contes de Tunisie). Editions du Jasmin, Paris 2010.

-